محمد العشرى

غادة الأساطير الحالمة

رواية



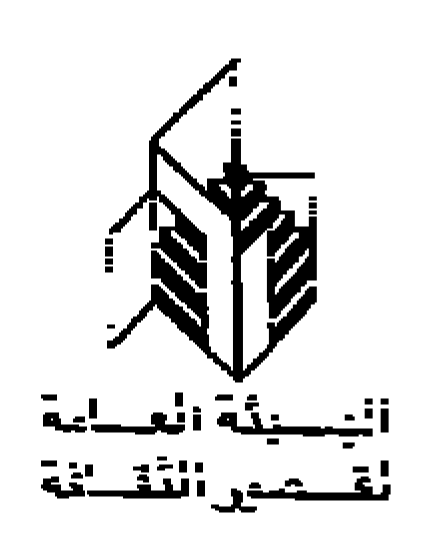
منتصف فبراير ١٩٩٩



غادة الأساطير الحالمة

روايـــة

محمد العشرى


الهيئة العامة
لقصور الثقافة


إبداعات

الهيئة العامة لقصور الثقافة
إبداعات / (نصف شهرية) / العدد : ٧٩
غادة الأساطير الحالمة / رواية / محمد العشرى
لوحة الغلاف الفنان الايطالى / روبرتو بارنى
الطبعة الأولى / منتصف فبراير ١٩٩٩
رقم الإيداع / ٩٩/٣٤٥٨

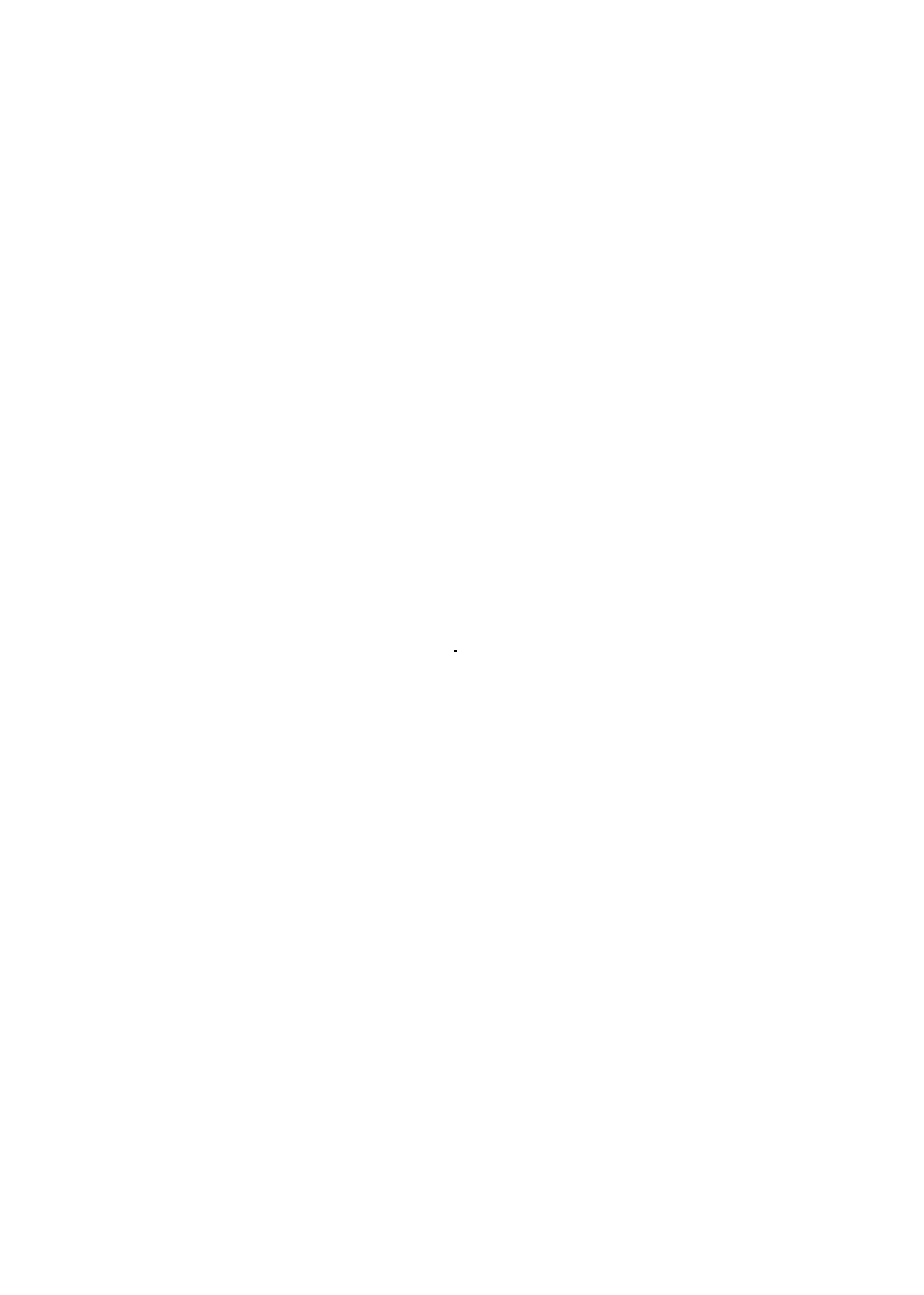
المراسلات : باسم رئيس التحرير
على العنوان التالى ١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى
رقم بريدى : ١١٥٦١

إهــداء

إلى غادة..

قلب الرحمة ، وفراشة الحب الحالمة..

محمد العشرى



فقط لو علم..

لو علم الفتى أن غادة الأحلام سوف تغضب.. عليه هكذا لظل كما كان دوما نظيفا.. وما سمح لِهَبّة الغبار، التى سحبته رغما عنه أن تقترب منه.

••

لو علم أنها سوف تهبط عليه من سمائها وتجفف معاناته، وتضمه إلى صدرها فى حنو بالغ، يكاد أن يذيبه ، ما دمعت عيناه قط.

••

لو علم أنه معها سيصبح بطل الحكايات.. يمتطى حصانه الأبيض ويخلص الأميرة من أنياب المردة والعفاريت، لو علم أن حكايات الغولة هى نفسها حكايات الناس، لاستل سيفه وطار إليها من زمن.

••

لو علم أن الرجال سيحسدونه هكذا وينقبون وراءه بخبث، لأن الله فتح له باب الحب على مصراعيه، وهال عليه السعادة كما يسقط الماء

من أفواه القِرَب، لما توقف عن قراءة «قل أعوذ برب الفلق».

●●

لو علم أنها سوف تحبه هكذا.. لخر ساجدا إلى الله إلى أن تقوم الساعة.

●●

لو علم أن برج الحوت سوف يخترقه برج القوس، ويكونان معا برجا جديدا، لا يولد فيه إلا هؤلاء الغارقون في رومانسيتهم، لأطلق سهم قوسه في دائرة البروج منذ بدء الخليقة.

●●

لو علم أنها اليوم - ١١ مارس ٩٦ - تكمل عامها السادس بعد العشرين، وهو إلى جانبها يرتب أعوامها القادمة، والقمر يضيء أيامها، وهومعها ينثر الورد على شعرها ويقبلها.

فقط، لو علم كل ذلك من قبل، لفرش عمره وأحلامه منذ مولده في الطريق الذى ستأتى منه، واستراح بين يديها.

نهر الحب..

فجأة استيقظت غادة الأحلام من شرودها فوجدت الفتى مكبلا بالحواجز وعيناه مسافرتان بعيدا ، تبحثان عن مخرج، فإذا بها تهبط من بيتها وتجلس بجوار الفتى، لمست ذراعيه بأصابعها فنبت فيهما الريش، أصبحا جناحين ، قالت غادة الأحلام للفتى:

ـ جرب أن تطير .

كانت الحواجز قوية بالدرجة التى كلست فيه حركته، أشفقت غادة الأحلام عليه ، فأمسكت بجناحيه وحركتهما ببطء ، وهى تزيد من قوته حتى حلق فى السماء وهى معه، كانت أشياء كثيرة تحاول أن تجذبه لأسفل ، لكنه مدفوعا بخفقان قلبه ظل محلقا، وهما فى السماء قالت له غادة الأحلام:

ـ انظر لأسفل.

فنظر، رأى كل شىء يبدو صغيرا بلا ملامح أو معنى، وقالت:

ـ انظر الآن لأعلى .

فرأى عصفورين يحلقان معا ويملكان كل الدنيا، ولا شىء فى

حوصلتيهما سوى حبة أرز واحدة يقتسمانها معا، وقالت:

- لا شيء في الحياة يعادل قلبا رائعا يفيض سعادة ويعطي للأشياء قيمة

كان الفتى وغادة الأحلام يقتربان أكثر من وجه الشمس التي خافت عليهما من سخونتها، فنادت على أخيها القمر كي يأخذ مكانها، وتذهب هي لتبرد نفسها قليلا.

وما إن رأت غادة الأحلام القمر في السماء حتى سلمت عليه وقالت له:

- هاهو القلب الحالم الذي أسرني وحدثتك عنه مرارا.

نظر القمر إلى الفتى وأجلسه بجانبه بعد أن حياه، وأخبره أنه كان يراقب غادة الأحلام منذ أن رأته، وأنها أصبحت تعيش في سعادة وحب جارف، وأنه لا بديل عنه.

بهت الفتى وحاول أن يتذكر الأشياء التي تكبله فلم يقدر، وجد قلبه يرفعه عاليا حتى جعله يرى نهر الحب الأزلي وغادة الأحلام لا تفارقه قط، حاول الفتى وحاول، ورغبته في أن يتطهر في النهر صهرت دموعه في عينيه، وضميره بين ضلوعه يوخزه بعنف، رقت له غادة الأحلام فلمست ذراعيه ثانية، فتحولتا إلى مجدافين، جدف بهما صاعدا إلى أعالي نهر الحب وغادة الأحلام أمامه تحثه قائلة:

- هيا يا صغيرى هيا..

فالحياة السعيدة تستحق بعض العناء وأنت قد عانيت كثيرا..

والله يشهد أنك تستحق غادة الأحلام ويباركنا..

فمنذ اللحظة الأولى ونحن مرتبطان إلى الأبد.. معا نحيا حياة لم يرها أحد قبلنا، ونرسم للقادمين على ممرات الحياة أساطير تحكى لكل البشر.

الرقة والحرية..

ولأن غادة الأحلام تعيش فى الدنيا فقد هيأت الفتى وحولته إلى طائر يملك متسعا لا حدود له.

ولأنها تخاف عليه فقد بنت له عشا رائعا فى قلبها، وأسرته بعقلها ورقتها، فصار يحلق فى كل الدنيا ولا يستريح إلا بين يديها.

وفى إحدى المرات هبط الطائر إلى الأرض، وكان الصياد ينصب فخاخا عديدة لا يفلت منها الأسد الكاسر، فضحك الطائر بمجرد أن رآها وأصبح يتنقل بهدوء وروية، يبحث عن زهرة لغادة الأحلام، وعلى غفلة منه داهمه الصياد بشباكه، وحين أمسكه الصياد بين يديه ورآه هادئا ويشير بجناحه إلى صخرة كبيرة، استغرب الصياد من فعاله، وفهم من إشارته أن يحرك الصخرة من مكانها، فحاول الصياد بكل جسمه حتى تحركت من موضعها ، فوجد تحتها جرة، ففتحها، وأدخل يده فيها فإذا بها مملوءة بقطع الذهب.

فرح الصياد فرحا غامرا وقبل الطائر فى منقاره ، وتركه يحلق عاليا ويرفرف حوله، بعدئذ ترك الصياد، والتقط زهرته وعاد إلى

غادة الأحلام.

أعطاها الوردة وأخبرها بما جرى له، فضحكت، وقالت له: إنها كانت تراه ، لكنها انتظرت كي ترى هل ينسى الزهرة ويعود مسرعا فرحا بحريته، أم لا يتخلى عن رقته التي أحبتها فيه.

ضحكا معا وغمر كلاهما الآخر، فهم الطائر أنه علم بمكان الذهب بواعز منها وأنها هي التي وضعته كي تحرره من أسره.

روح شريرة..

ورأيت الفتى لا يصدق حاله ، مدهوشا بكل ما يحدث له، فهاهى العصا السحرية فى يده تحول الأحلام إلى حقيقة رائعة، وهاهو يبنى كوخه من اللؤلؤ وأخشاب الجوز، وحين انتهى كانت غادة الأحلام متوجة كملكة تنتظره بداخله تنثر الحب والدفء، وهاهما متعانقان فى لذة وسعادة يرتبان الأحلام فى كل الأركان، وبينما هما كذلك، سمعا أصوات فئران حول الكوخ، فخرجا يستطلعان الأمر..

رأيا الفئران تدور حول الكوخ، تقرض كل شىء بنهم، والفأر الذى يمر من أمام باب الكوخ يستلقى ميتا، بعدما يصاب بحالة من الذعر.

اندهش الفتى والملكة مما رأيا، وحاولا البحث عن سبب لذلك، فوجدا طيورا سوداء تهبط من السماء، وتحمل الفئران فى مخالبها، وتختفى، حتى أتت على كل الفئران.

وهما ينظران لبعضهما لم يصدقا ما حدث.

عبثا بأقدامهما فى الحشائش فوجدا أسرابا من النمل ميتة وممزقة بلا رحمة، وقبل أن يدخلا إلى كوخهما كانت جماعات من

طيور أبى قردان قد أحاطت بالنمل وأكلته عن آخره وطارت فى بحر السماء، فهمت غادة الأحلام أنهما مرصودان من روح شريرة فى المكان تحاول أن تصيبهما، لكن الله يحميهما ويبطل فعلها قبل أن يصل إليهما.

فتشت غادة الأحلام فى الغابة فوجدت جذع شجرة ضخمة قمته محروقة من زمن، أمرت الفتى أن يحضر الفأس، وظل يعمل بها نهارا كاملا، يحفر حول الجذع حتى بانت الجذور الرفيعة ، فدار عليها بالفأس يقطعها، حتى فصل الجذع عن الأرض، أخبرته غادة الأحلام أن ينتظر قليلا، فرأى عجبا، الجذع تلوى كثعبان خرافى ثم تحول إلى امرأة سوداء بشعة المنظر، وبمجرد أن رأت غادة الأحلام واقفة احترقت وصارت رمادا.

فى تلك الأثناء بدأ الهواء ينشط، وطرقات البرق انطلقت، فأخذت غادة الأحلام بيد الفتى ودخلا إلى الكوخ.

وهما متعانقان سمعا سيلان المطر يغسل الغابة، حاول الفتى أن يستفسر، لكن غادة الأحلام وضعت أصبعها على فمه وقالت:

- نَمْ حتى الصباح!

الرعاة..

استمرت الأمطار فى الهطول إلى الصباح، والشمس تهيأت للظهور، وبها لهفة كى تلقى نظرة على غادة الأحلام وهى فى كوخها، فرسمت قوس قزح بألوانه المدهشة التى انعكست إلى داخل الكوخ، فأيقظت غادة الأحلام والفتى فى آن واحد، سمعا أغنيات الرعاة تتردد فى طرقات الغابة، فقام الفتى وألجم حصانه الأبيض وانطلق ليلقى نظرة عليهم.

بدوا ضعفاء وأغنامهم وخرفانهم هزيلة.. كانوا يرددون الأغنيات لتشغلهم عن تعبهم، وفجأة توقفت الأغنيات فى حناجرهم وهرولوا إلى حيواناتهم، كانت الذئاب والوحوش قد التفت حولهم من كل اتجاه وهجمت عليهم، أصبحوا يدافعون عنها بضراوة وقوة دون فائدة، فقد اختطفت الوحوش كل أرزاقهم واختفت فى الغابة، وكان الفتى معهم يحاول أن يدفع عنهم الذئاب فلم يقدر.

وغادة الأحلام فوق قمة الشجرة تراقب الموقف، رق قلبها لحال الرعاة ، انطلقت فى أثر الوحوش وقتلتها.

نظرت إلى السماء لترى أملها فى مساعدة الرعاة.

عادت إليهم وخلفها جماعات من الخرفان السمان والأغنام العفية، التف الرعاة حولها وهم يقبلون يديها، تركت لهم الحيوانات وركبت الحصان خلف الفتى وعادا إلى الكوخ، والأغنيات تصاحبهما، والفتى واجم مما حدث ينصت إلى نايهم:

- علمينى كيف أحبك وأهش الذئاب من حولك.

ضعى يدك على صدرى فاللمس منك يفتت قلبى.

فى الكوخ عالجت غادة الأحلام الفتى من آثار المعركة، أعدت مشروبا ساخنا وجلسا يتناقشان فى حال الرعاة، اقتربا من بعضهما أكثر، داخا فى نشوة الحب.

الليل بدأ يتسلل فى غفلة من الشمس وصوت الرعاة يهدأ رويدا رويدا.

نظر الفتى من شباك الكوخ فرأى الخرفان والأغنام والرجال مرابطين حول الكوخ، يشعلون نارا ويتسامرون بحكايات غادة الأحلام ويبيتون فى حماها.

مروج الذهب

صحا الفتى من نومه مفزوعا، نظر بجانبه فلم يجد غادة الأحلام، خرج إلى الغابة وظل يبحث عنها والقلق يعتصره، انكبت المخاوف فى رأسه دفعة واحدة خوفا من أن يهاجمه الموت فجأة دون أن يرى غادة الأحلام، كانت قد أخبرته بالأمس أنها تصر الذهب فى أشكال مختلفة ، وتنوى أن تطعم كل المحتاجين، وأنه بدوره قد أصبح حرا فى ذهبها.

لم يكن الفتى قد استوعب الأمور الأولى جيدا، ولم يكن يعنيه مثقال ذرة من مروجها، لكنه بات يفكر فى أمور تعنيهما بالدرجة الأولى، وهى حبهما.

والذى حاول أن يستوعبه هو: كيف يتسنى لغادة الأحلام أن تمتلك كل تلك المروج وفى نفس الوقت تملك أشجاراً أعلى من الجبال وورداً يصل إلى السماء.

تلك أمور عرفها جيدا فيها: بساطتها.. رقتها.. إخلاصها.. جمالها.. عذوبتها.. وحبها الكبير له ولمن حوله.

كان رأس الفتى مزدحما بالأفكار المختلطة حتى ضل طريقه فى جنبات الغابة، وأشرف على تلال من الرمال النائمة تحت فرن الشمس، رأى ربوة عالية فوقها بيت له شباك مغلق، وثمة رائحة يعرفها أنفه تدل على غادة الأحلام، تخرج من بين مفاصل الصخر، تسلق الفتى الربوة وأمسك بحلق الشباك وفتحه، حاول أن يدلف داخله، فسقط على ظهره، وقد تعفرت عيناه بالرمل الساخن، فأخذ يهذى وينادى بصوت عال تردد صداه فى أذنيه آلاف المرات. تحركت الربوة بالبيت إلى أعلى واختفت، والفتى يغرس أصابعه فى الهواء محاولا أن يلحق بها.

بالفعل استطاع أن يرتفع وراءها، لكنه سقط وتمرغ فى الصهد، كان الحصان يرقب الموقف، فاقترب من الفتى وسحبه إلى أن وضعه على ظهره، وعاد به من نفس الطريق بدون عصبية الفتى، وصل الحصان إلى الكوخ، فدفع الباب برأسه وأدخل الفتى وخرج.

حين أفاق الفتى وجد غادة الأحلام تسهر عليه وتزيل عنه الحمى التى أصابته، طبعت قبلات رقيقة على جبهته فاستكان وهدأ، وهى تداعب شعره بأصابعها وتغنى:

هام الفتى على وجهه

والحسن قابع فى بيته

زيارة التماسيح..

بينما الفتى وغادة الأحلام في داخل الكوخ انسابت مياه النهر فجأة، أصبحا محاطين بمياه محملة بالطمي والتماسيح، معزولين في جزيرة صغيرة، أخذا يفكران فيما يعملانه.

برقت في رأس الفتى فكرة، فركب حصانه وأخذ رمحه ونزل إلى الماء، أراد أن يصل إلى برزخ في نهاية البحيرة، كي يفتحه حتى تتسرب المياه إلى البحر.

شمت التماسيح رائحة الفتى والحصان فأخذت تقترب منهما، والفتى بدوره هيأ رمحه وترقب في حذر.

هجمت التماسيح عليه من كل اتجاه، فقفز الحصان إلى أرض ناتئة، والفتى أخذ يغرس رمحه في رؤوس التماسيح، يقاتلها بشراسة حتى فرت منه.

ركب حصانه وواصل قفزه من يابسة لأخرى حتى وصل إلى السد، فأخذ يثقبه برمحه حتى ثقل الماء على السد، ولم يتحمل اندفاع تيار الماء فانهار.

بعد انهيار السد انحسرت المياه عن اليابسة، والتماسيح زحفت

فى الطين، ألقت أجسامها من فوق حطام السد إلى البحر، رأى الفتى واحدا منها متعثرا فى زحفه فهاجمه، غرس الرمح فى فكه العلوى واخترقه إلى الفك السفلى، فسمرهما معا، ثم حمل التمساح على كتفه وعاد إلى الكوخ، كانت غادة الأحلام منزعجة من مهاجمة التماسيح لكوخها، وحين خرجت رأت المياه قد جفت، والفتى عائد وعلى كتفه أحد التماسيح فضحكت.

أخبرها الفتى برغبته فى أن ينزع جلد التمساح، ويأكل من لحمه، ظلت غادة الأحلام صامتة ولم ترد عليه.

وضع الفتى التمساح على الأرض أمام الكوخ وقيده بالحبال، أراح حصانه ودخل مع غادة الأحلام إلى الكوخ وراح يقص عليها أخبار المعركة الشرسة، وكيف ساعده الحصان فى تخطى هجوم التماسيح، وأنه قوض السد برمحه، وغادة الأحلام تنصت إليه مندهشة من آن لآخر مما تسمعه، وحين تثاءب الفتى من التعب ونام، خرجت غادة الأحلام، وحلت قيد التمساح، وتركته يعدو سريعا ليلحق بأخوانه ثم رجعت إلى الكوخ ونامت.

فى الصباح خرجت الشمس عفية ، والأرض أخرجت الزهور بسرعة، خرج الفتى ووراءه غادة الأحلام.. سألها عن التمساح قالت له:

ـ انظر إلى تلك الزهور البيضاء وذلك الوادى الجميل.. لقد تخصبت أرضنا بزيارة التماسيح..

لصوص الكوخ..

فى الليل هاجمت الكوخ مجموعة من الأشرار، كانوا يفتشون عن اللآلئ والذهب، قيدوا الفتى وغادة الأحلام وسلبوا كل ما فى الكوخ، تركوهما لا يقدران على فعل شىء حيالهم وهربوا، انطلقوا فى الغابة مسرعين حتى وصلوا إلى الصحراء.

نادت غادة الأحلام على طائرها الأبيض فسمع نداءها يتردد فى صفحة الكون فذهب إليها مسرعا.

دخل الكوخ، بهت لما وجده، فأخذ يعمل بمنقاره حتى فك قيد غادة الأحلام، وانتقل إلى الفتى، قالت له غادة الأحلام:

- اتركه لى واذهب أنت فى غمضة عين وأخبر أبى بما فعله اللصوص، فذهب الطائر من فوره وأخبر أباها - الوالى - بما صنعه اللصوص .

خرج الوالى فى جيشه إلى الصحراء متتبعا أثر اللصوص، والطائر يحلق فوق الجيش حتى شارف على تلة عالية فحط عليها، وأخبر الوالى أن اللصوص يختبئون فى أسفل الوادى.

انهال عساكر الجيش عليهم وقيدوهم في السلاسل، وعادوا بهم إلى الوالي، الذي تقدمهم وساروا إلى كوخ غادة الأحلام.

كان الفتى وغادة الأحلام يستطلعان الأمر أمام كوخهما، وحين رأت غادة الأحلام أباها ابتسمت للفتى، قبلت أباها وأدخلته إلى الكوخ ليرى فعل اللصوص وعبثهم بالمكان .

أمر الوالي عساكره بترتيب الكوخ وإعادة ما سلبه اللصوص وقال لها:

- بماذا تأمرين في هؤلاء؟!

وأشار بيده إلى اللصوص، ذهبت غادة الأحلام إليهم بعدما استأذنت أباها وسألتهم:

- ما دفعكم إلى ذلك؟

جعل كل منهم يدفع بالأسباب وراء بعضها البعض وعيونهم على سيف الوالي.

قالت غادة الأحلام لهم:

- وإذا حصلتم على ما يجعلكم تعيشون كرماء بين الناس فهل تعودون إلى ذلك؟

قالوا جميعا في نفس واحد:

- لا والله.

أمرت غادة الأحلام العساكر أن يعطوهم ما يحتاجون إليه من مال ويعيدوهم إلى بيوتهم فأطاعوها .

عادت غادة الاحلام إلى أبيها وأخبرته بما فعلت ، ضحك منها وقال:

- دائما أنت هكذا.

قالت:

- لنرى كرمي أم سيفك!!

ثعالب وأرانب وفتيات

كان خرير الماء يأتى من جدول صغير جانب الكوخ، ومن آن لآخر يسمع الفتى صوت ارتطام جسم ثقيل بالماء، قَبّلَ الفتى غادة الأحلام، وشد عليها الغطاء، وخرج من الكوخ ليستطلع الأمر. كانت غادة الأحلام تحس بأنفاس الفتى حتى وهى فى أعمق نوم، وإذا ابتعد عنها تصحو سريعا.

وجد الفتى مجموعة من الأرانب البيضاء تلهو فى الجدول وتستحم مع بعضها، جلس على صخرة كبيرة يتأمل مزاحهم وأشكالهم، سريعا انقلبت سحنته فقد رأى مجموعة من الثعالب تحوم حول الجدول من بعيد تنصب فخاخها للأرانب، نظر الفتى حوله يبحث عن شيء يدفع به الثعالب بعيدا، وجد بندقية جانب الصخرة، بعدما اندهش لوجودها التقطها وصوب تجاه الثعالب وضغط الزناد، خرجت الطلقات دون صوت، تساقطت الثعالب صرعى، ولم يبق غير واحد، صوب إليه وقبل أن يضغط الزناد نظر إليه الثعلب نظرة جعلته يتجمد فى مكانه، شعر كأن إنسانا هو الذى ينظر إليه، وقبل أن يفيق الفتى من تفكيره اختفى الثعلب فى أحراش الغابة، لم تشعر

الأرانب بشيء وظلت تلقى بنفسها فى الجدول.

ذهب الفتى ليرى جثث الثعالب فلم يجد لها أثرا، رجع إلى الصخرة وجلس مذهولا، ألقى البندقية تحت قدميه، فاختفت فى الحال قبل أن تصل إلى الأرض، وقف وجسده يرتجف مما يحدث، تحرك إلى الجدول، دقق النظر فى الأرانب فوجدها فتيات صغيرات بحجم الأرانب.

كاد أن يسقط فى الماء، تراجع إلى الوراء، والفتيات تجمعن حول قدميه يقبلنها، بعد ذلك قفزن فى الماء وانسبن مع الجدول.

كان العرق والخوف يغمران الفتى، فعاد جريا إلى الكوخ، وجد غادة الأحلام واقفة خلف النافذة، فاحتضنها.

وقال: هل رأيت ما حدث؟

قالت : لقد أصبحن الآن فى مأمن بعدما قتلت الثعالب.. أقصد الأوغاد..

قال: والذى هرب؟

قالت : لن يعود

نظر الفتى فى ركن الكوخ، فرأى البندقية التى كانت معه.

قال : كيف عرفت؟

لم تجب غادة الأحلام واحتضنته ، أزالت عنه الخوف والرعشة وهى تقول: لا تلق بالا.

السفينة فى البئر..

ثمة دوامات هوائية تدور حول الكوخ كلما اكتمل وجه القمر فى السماء، وقوة مغناطيسية هائلة تحاول أن تجذب الكوخ إليها، وغادة الأحلام فى الكوخ تقص على الفتى حكايات من الزمن القديم.

شعر الفتى وغادة الأحلام بالعفاريت وقد استيقظت من الحكايات، وانتشرت حول الكوخ، خرجا ليريا ما يحدث.

كان القمر مكتملا والدوامات الهوائية تصفر فى الخلاء، وقوة هائلة تحرك أقدامهما فى اتجاه لم يسلكاه من قبل.

وصلا إلى منطقة نائية عن كوخهما، نظرا تحت أقدامهما فوجدا بئرا عميقة جدرانها شديدة الانحدار، وفى قاعها نقطة ماء متلألئة.

حدقا فيها، فشاهدا سفينة غارقة فى داخلها، ووجوه تتطلع إلى أعلى، بدت البئر كأنها (مينة) ساعة ضخمة، عقرباها يخلطان الوجوه والأصوات كطاحونة هوائية، وأشرعة السفينة مازالت قائمة تقاوم قوة الجذب، انتزعت غادة الأحلام خصلة طويلة من شعرها، برمتها بين أصابعها، وهى تتمتم بصوت غير مفهوم فتحول الشعر

إلى حبل طويل، أسقطت طرفه فى البئر، ولفت طرفه الآخر حول جذع الفتى، وحين وصل طرف الحبل إلى قاع البئر، تعلق به أصحاب الوجوه جميعهم، صارت غادة الأحلام تجذب طرف الحبل والفتى يتحرك إلى الخلف بقوة، أخرجت غادة الأحلام الغارقين من البئر، وألقت طرف الحبل مرة أخرى فاشتبك بالأشرعة وصارا يجذبان السفينة حتى أخرجاها من البئر.

بصقت غادة الأحلام فى البئر فتهدمت جدرانها تماما وانغلقت.

نقلت السفينة إلى الشاطىء بعدما استضافت الركاب فى كوخها عدة ليال، وهم يشكرونها صعدوا إلى سفينتهم، وشوشت غادة الأحلام الموج كى يسير هادئا وهم يلوحون لها من بعيد، كان الفتى قد رجع إلى الكوخ وتمدد فى فراشه، بعد فترة وضع يده على رأس غادة الأحلام يتحسس مكان الشعر، فوجد الخصلة فى موضعها فابتسم ونام.

فجأة، بدون مقدمات مرضت غادة الأحلام، أصبحت شاردة لا تنظر إلى شيء، ولا تكلم الفتى الذى أعيته الحيل، ولم يستطع فعل شيء للتخفيف عنها، وبعد عدة أيام أخبرته أنها ليست مريضة ولم يقربها داء، لكنها رأت فى نومها أهل السفينة وقد مرضوا، أصابهم فيروس لعين، صار يبتر أطرافهم، ولم يبق منهم أحدا إلا امرأة

عجوزاً، وأنها وحدها فى السفينة يحركها الموج حيث يشاء.

بقدر ما فرح الفتى بشفاء غادة الأحلام بقدر ما حزن على ما أخبرته به، وصار يفكر فيما يصنعه.

أطلعته غادة الأحلام على مكان السفينة فقام من فوره، امتطى حصانه الأبيض وطار يسابق الريح، قطع أميالا عديدة من الرمال على طول الساحل، فبدت أشرعة السفينة من بعيد.

من فرحته أرغم حصانه على النزول إلى البحر، فعام والفتى فوقه يجدف بقدميه، ويلوح بذراعه لمن بالسفينة حتى اقترب منها، شد لجام حصانه بقوة فقفز به إلى السفينة.

كانت المرأة العجوز فى ركن متكومة على ضعفها، والجثث حولها ممزقة بلا رحمة، رفع الفتى المرأة على حصانه وأشعل نارا فى السفينة، وقفز على ظهر حصانه خلف المرأة، وطار فوق الماء حتى وصل إلى الشاطىء، وقف مراقبا السفينة وقد اضطرمت فيها النيران وتساقطت فى الماء، عاد بالمرأة إلى غادة الأحلام فاستقبلتهما بفرح شديد.

قصت المرأة على غادة الأحلام ما حدث للرجال والنساء والأطفال، وقالت إنها كانت تنظر لجسدها ويخيل إليها أنها تتمزق، فأغمضت عينيها ولم تفتحهما، حتى رأت الفتى أمامها، ضحكت

غادة الأحلام وطلبت منها أن تفتح قبضة يدها، فوجدت بعض شعرات من شعر غادة الأحلام حول أصابعها، فهمت المرأة أنها نجت من المرض بفضل تلك الشعرات ، فانقلبت على وجهها تقبل قدم غادة الأحلام التى انزعجت من تصرفها، فأوقفتها واحتضنتها، والفتى فى الخارج يعد نفسه لسفر طويل .

أعد الفتى حصانه لرحلة طويلة كى يوصل المرأة العجوز حيث تشاء، قطعا آلاف الأميال حتى وصلا إلى شاطىء النهر، وجدا المراكب تتلألأ فوق الماء وتتهادى فى رقة وطمأنينة، صعدت المرأة إلى المركب ولوحت للفتى بيديها علامة على أنها أصبحت فى مأمن، وما هى إلا ليلة أو ليلتان وتصل إلى بلدها فى جنوب النهر.

غاب المركب فى ذيل النهر، والفتى ينظر إليه وابتسامة مريحة تعلو وجهه، حول نظره إلى السماء فرأى النجمات ترقص والقمر ينام على وسائده فى دعة وكسل، شاهد الفتى وجه غادة الأحلام فى ضوء القمر يناديه، فركب حصانه وانطلق عائدا إليها من حيث أتى.

كانت الصحراء ممتدة إلى ما لا نهاية، والفتى لم يرح حصانه لحظة واحدة، تعب الحصان من الجرى، أراد أن يقف قليلا، لكن قدميه غارتا فى الرمل، حاول الحصان أن يتراجع بكل قوته، ولكنه لم يقو على ذلك، صار الفتى يجدف بقدميه فى الرمل المتحرك بلا فائدة،

أخيرا ابتلعهما الرمل ولم يعودا يظهران.

قلقت غادة الأحلام على الفتى، فجهزت طائرها الأبيض وأطلقته ليستعلم لها عما حدث للفتى، أخذ الطائر يجوب يمينا وشمالا، شرقا وغربا، عاد الطائر إلى غادة الأحلام ورأسه منكس ومدفون بين جناحيه، صعدت غادة الأحلام إلى بيتها، ورأت ما حدث للفتى قائما أمامها .

حين غار الحصان بالفتى في الرمل، ظلا يهبطان ببطء حتى اصطدما بصخرة في باطن الأرض، دفعها الحصان بقدميه فتحركت، سمع الفتى صوت ماء في الجوار، فتحرك بالحصان إلى مصدر الصوت. كانت الممرات إلى الماء معتمة، لكن الفتى سار إليه بخاصية ارتداد الصوت، حتى عثر على الماء، نظر بعيدا فوجد السماء ظاهرة وثمة مركب قادم إليه، أخذ يقبل حصانه، ونزل به إلى الماء يستحمان ويزيلان عنهما الغبار والرمل العالقين برئتيهما.

وصل إليهما المركب ، كانت غادة الأحلام هي التي تحركه، وحين رأت الفتى قفزت إلى الماء، وصارت تعانقه وتحتضنه بقوة، أنست الفتى ما كان فيه، والحصان خلفهما يصهل ويرجف جسده بعنف، فينتفض الرزاز عليهما، فيضحكان ويرتجفان وهما يواريان جسديهما في الماء عن أعين الحصان.

الطائر يفجر عين الحوت..

حين تأخرت غادة الأحلام علم الطائر أنها لابد قد عرفت مكان الفتى، طار عاليا فوق الغابة يرصد الزهور التى تحبها ويجمعها وينسقها فى زوايا الكوخ.. وبينما هو عائد بزهرة انقلبت الريح عليه، وصارت تقلبه على ظهره فى الجو بصورة لم يعرفها من قبل، ففهم أن فى الأمر شيئا خاصا بغادة الأحلام، انطلق فى اتجاه الريح، وصل إلى البحر، كانت غادة الأحلام عائدة بمركبها ومعها الفتى وحصانه، لكن الموج كان عاليا يبطش بالسماء من بعيد، وكاد أن يقلب المركب عدة مرات، ورأى الطائر حوتا عملاقا يخرج مع الموج من آن لآخر وفى ظهوره يقترب من المركب فيرج الماء رجا عنيفا، خاف الطائر على المركب فاقترب من الحوت وأصبح يشاغله كلما خرج إلى سطح الماء.

برزت فى رأس الطائر حيلة فأخذ ينقر بمنقاره فى عين الحوت فيهرب ويغطس فى الماء، صلب الطائر جسده وانقض بمنقاره كرمح على عين الحوت، ففجرها، جن الحوت فضرب الماء بقوة ولدت موجة

هائلة، حملت المركب إلى الشاطىء، وكان الناس على الشاطىء يشاهدون المعركة، استقبلوا غادة الأحلام والفتى بترحاب شديد، وانتظروا عودة الطائر الذى ظل يتحايل على الحوت ، حتى فقأ عينه الأخرى، فأصبح الحوت متهورا لا يشعر بجسده الثقيل، فاندفع إلى الشاطىء، وبسرعة اجتمع حوله الرجال، وجروه بعيدا عن الماء، فى لحظات كانت بيوت الناس ممتلئة بأكوام من اللحم يكفيهم شهورا طويلة، صاروا يجهزونه ويحفظونه بطرق شتى.

فى الليل اجتمعوا حول الفتى وغادة الأحلام والطائر فى يدها، والحكايات أصبحت وقودا للنار المشتعلة بجانب الشاطىء والطائر مستكين تحت أصابع غادة الأحلام، اكتمل القمر وأصبح الليل على وشك الانتهاء، قامت غادة الأحلام، وأيقظت الفتى، جهزت حصانه للعودة إلى الكوخ وأهل الساحل جميعا مشوا خلفهما كى يوصلوهما إلى حيث أرادا.

.. سبقهما الطائر لينسق زهور الكوخ، وهما عائدان شما رائحة الزهور تداعب أنفيهما، دخلا كوخهما، أخذا نفسا عميقا من زهورهما، جريا وراء بعضهما، وكل منهما ينفلت من الآخر، لعبا فى حبهما ألعابا مجنونة، والطائر خارج النافذة يستمتع بهما، تركهما وذهب إلى الغابة، وعيناه تفتشان فى أعشاش الطيور عن طائر يشبهه ويبادله الحب.

كائنات الكهف..

أغرقت الألوان الفتى بتمازجها، والخيالات التي تخرج منها تقفز في الظلام بأجسامها الخرافية، وخفة انتقالها من كائن إلى كائن آخر لم يشاهده الفتى من قبل.

حيوانات وأناس وعفاريت.. كل ذلك أحاط بالفتى، وصار الظلام حالكا والجو باردا ووجه طفولي من بعيد يخرج الفتى من إرهاصات تخنقه، كان الفتى سائرا في درب معتم والحوائط من حوله لدنة تتقعر وتتحدب تحت ملمس أصابعه، أراد أن يصل إلى نهاية الدرب، وجد كهفا وبداخله الكائنات التي رآها من قبل محيطة به، تتهامس فيما بينها بلغة لم يفهمها، وضفدع كبير يحرس صندوقا أبيض تخرج منه ألوان الطيف.

اختبأ الفتى حتى تبخرت الكائنات، بعد ذلك انسل خفية، شاغل الضفدع مرارا، أراد أن يخرجه من مكانه، لكنه بدا مسمرا في مكانه، تحير الفتى وحاول أن يفعل شيئا حياله، نظر إلى سقف الكهف، رأى الوجه الطفولي يبتسم له، قفز الضفدع على الفتى حين

رآه غير منتبه له. أمسكه من ذراعيه وثبته في الحائط من كتفيه.

أتت الكائنات على صوت الضفدع الذى أخذ ينق نقيقا عاليا، أمسكوا بالفتى وكتفوه، وضعوه في فتحة أسفل الكهف وغطوه بشبكة من الحديد.

نظر الفتى عاليا فوجد الوجه مازال يبتسم له، ظن أنه رسم أو شرك للإيقاع بمن يأتى إلى الكهف وصار يتأمله. كان الوجه ينقبض وينبسط محاولا أن يتخلص من السقف. اندهش الفتى مما رآه ولم يغلق عينيه عنه.

انتفض الوجه وتخلص من السقف، ونزل إلى الضفدع وسحبه إلى خارج الكهف. تعجب الفتى من سكون الضفدع وانقياده هكذا بسهولة وتركه للصندوق الذى يحرسه.

عاد الوجه الطفولى، وألقى للفتى سكينا ملطخا بالدماء. انزعج الفتى وفهم أن الوجه الطفولى قد ذبح الضفدع الكبير، دار الوجه على أقفال الشبكة الحديدية وفتحها، أخرج الفتى من سجنه، واختفى قبل أن يحدثه بكلمة واحدة.

سمع الفتى أصوات الكائنات آتية إلى الكهف ، بسرعة نزل الفتى إلى الحفرة وسحب الشبكة الحديدية عليه كما كانت، وتظاهر بالنوم ، دخلت الكائنات إلى الكهف، بحثت عن الضفدع فلم تجده،

تملكها الغضب وصارت تتوعد الضفدع بالهلاك، بدت وكأنها قد نسيت الفتى، اندمجت فى الأكل والشرب، ثم وضعت ما معها فى الصندوق الأبيض ونامت، وأصوات شخيرها تهز الكهف، وضع الفتى السكين فى ملابسه، وأزاح الشبكة الحديدية ببطء، خرج من الحفرة، فتح الصندوق فوجده ممتلئا باللؤلؤ والألماس، حمل الفتى الصندوق فوق كتفه، وخرج من الكهف، وجد حصانه فى الخارج ينتظره، وضع على ظهره الصندوق وعاد إلى الكهف، حمل الشبكة الحديدية معه وثبتها على مدخل الكهف.

ركب الفتى حصانه وانطلق إلى الكوخ، وجد غادة الأحلام نائمة، فدخل بهدوء حتى لا يزعجها، وضع الصندوق فى ركن الكوخ وتمدد بجانب غادة الأحلام.

وعيناه تنظران للسقف انتبه إلى غادة الأحلام، وأخذ يتفرس ملامح وجهها، فبدت منطبقة تماما مع ملامح الوجه الذى رآه فى الكهف، أيقظ غادة الأحلام وقبل أن يسألها عن شىء قالت:

ـ هل أحضرت اللؤلؤ؟

فقام من فوره وسحب الصندوق إليها وفتحه، قالت:

ـ هذا لؤلؤى وقد سرقه اللصوص من زمن.

كان النوم مازال مسيطرا على غادة الأحلام، فأراحت رأسها على الوسادة، وقبل أن تغط في نومها قالت للفتى:

- قم الآن وانظر من النافذة.

رأى الفتى الضفدع الكبير مربوطا في جذع شجرة خلف الكوخ، صاح قائلا:

- إذن لم تقتليه.

قالت:

- اهدأ الآن وسوف أخبرك بالأمر في الصباح.. المهم اذهب إليه الآن وفك وثاقه واتركه يرحل.. ولا تنس أن تعطيه مفاتيح أقفال الشبكة الحديدية وزوده بطعام وافر.

نامت غادة الأحلام وتركت الصندوق إلى جانبها، وخرج الفتى إلى الضفدع الكبير، في الصباح دخلت الشمس إلى غادة الأحلام فأيقظتها، نظرت إلى الفتى وجدت نومه هادئا والألوان تنسحب وإرهاصات النوم تتبخر بعيدا عنه وتختفي في ضوء الشمس.

بوابة تمنع الحياة..

خرج رجال القرية فى الفجر يحملون فؤوسهم على أكتافهم، وفى نيتهم أن يغيروا مجرى النهر، ويهدموا البوابة العملاقة التى يشترون منها الماء لزراعة أرضهم.

أخذوا يحفرون على ضوء الصباح حتى أتت الشمس عليهم وهم منهمكون فى الحفر، عند الظهيرة تكالبت عليهم العساكر من كل جانب ، اشتبكوا معهم فى قتال رهيب، أسفر عن مقتل العساكر ونصف الفلاحين.

رأى النهر الدماء وقد اختلطت بمائه فأخذ يجف تدريجيا، والرجال يحفرون مصممين على ما فى رؤوسهم، وقبل أن تغيب الشمس كان مجرى النهر قد تغير، ولم يعد للبوابة تحكم فى الماء، لكن النهر ابتلع ماءه وجف.

وقف الرجال على الشاطىء ينتظرون.

حين غطست الشمس جاء الليل بجيوش من العساكر، وقفوا على الشاطىء الآخر فى حالة تأهب.

كان اختفاء الماء قد أرعب الجميع، وأضعف الرغبة فى القتال لدى العساكر وقوادهم، أشار كبار الرجال على القواد أن يحقنوا الدماء ويبحثوا فيما آل إليه حال النهر.

انطلق بعض الرجال إلى أعالى النهر كى يروا إلى أى مسافة وقف الماء، كانت رحلتهم طويلة، استغرقت عدة شهور، ولا أثر للماء فى المجرى الجاف، وقف الرجال على المنابر فى المساجد، يخطبون فى الناس بأن يتخلصوا مما فى نفوسهم من غل وحقد، لأن اللعنة ستظل تطاردهم ما لم يتطهروا من شرورهم، مرت شهور أخرى ولم يأت الماء.

نفقت الحيوانات، تهالك الأطفال، والنساء جلسن لا يتحركن فى انتظار الموت.

عادت الرحلة وقد أضناها البحث، ولم تعثر على نقطة واحدة، كان الجفاف فى وجوه الناس قد شقق جلودهم وصلب مشاعرهم، عاش رجال الرحلة على صبار ضخم اقتلعوا جذوره وصاروا يمتصون ماءه ، فعادت إليهم بعض القوة، أشارت عليهم امرأة عجوز أن يذهبوا إلى كوخ الفتى وغادة الأحلام، فربما يجدون عندها منقذا لما هم فيه من لعنة لا تريد أن تبارحهم.

أعدوا الرحلة وانطلقوا مسرعين إلى غادة الأحلام، والأمل رطب

نفوسهم وهون عليهم الطريق.

وصلوا إلى غادة الأحلام. أخبروها بما جرى لهم من جفاف وبما كان من أمر النهر.

أخبرتهم غادة الأحلام، أنها تستطيع أن تصالح النهر، ولكن عليهم ألا يتقاتلوا مرة ثانية، وإلا فالهلاك سيحصدهم.

أطاعها الرجال فيما قالت، قبلوا قدميها، فسحبت نفسها منهم وقالت:

- انتظرونى هنا

ونظرت إلى السماء واسترجت أن ينهمر الماء. عادت غادة الأحلام إلى الرجال، وقالت :

- اذهبوا الآن فالماء سيصل إلى بلادكم.

سافر ماء النهر فى مجراه، وصل إلى أهل القرية فصاروا يلقون بأنفسهم في الماء حتى ارتوا، وفى لحظات اشتعلت المعركة من جديد بين الفلاحين والعساكر، وكل يحاول أن يسيطر على النهر فى المجرى الذى يريده، رأت غادة الأحلام أن الرجال الذين جاءوا إليها لم يصلوا بعد برسالتها، وعليها أن تفعل شيئا حيال الدماء التى تهدر.

جهزت الفتى وألبسته عدة الحرب.

طار الفتى بحصانه فى مجرى النهر، حتى وصل إلى المعركة

وحين رآه المتحاربون اختبأوا وبنادقهم مصوبة إليه، بدا الفتى للناس كعملاق صعد من قاع النهر فجأة، ضرب بقدميه فقاعات الماء التى تكاثرت حوله، وهو واقف أشار بسيفه إلى شاطىء الفلاحين فتراجعوا وألقوا بسلاحهم ، وأشار إلى العساكر وقوادهم فأطاعوه وتراجعوا إلى الشاطىء الآخر. فتح الفتى البوابة التى تحجز الماء وقوضها، فاندفع الماء فى المجرى، كما اندفع فى المجرى الآخر الذي حفره الفلاحون.

توالت الصيحات على شاطىء النهر عالية، وأهل القرية يهتفون للفتى، الذى جلس إليهم وأخبرهم أن غادة الأحلام سوف تحزن وتمنع عنهم مساعدتها، إذا تعاركوا مرة أخرى، وطلب منهم أن يَعِدوه فامتثلوا له وهم يبجلونه.

عاد الفتى إلى غادة الأحلام التى كانت تنسق الزهور حول الكوخ،

وعادت الرحلة إلى أهل القرية فاستقبلتها المرأة العجوز، وأخبرت الرجال بما حملتهم به غادة الأحلام من رسائل فتعجبوا منها.

وحين اختلطوا بالناس عرفوا أن الجميع يحفظون تلك الرسائل، شاهدوا أطفال القرية وهم نائمون يحلمون بغادة الأحلام، فاندهشوا وقد انزاح عن كاهلهم عبء إقناع الناس.

غزالة فى الأحراش..

استراح الفتى بين ذراعى غادة الأحلام، حكى لها ما كان من أهل القرية فابتسمت ، أخذ يقص عليها تفاصيل عودته وهى منصتة له، تداعب شعره بأصابعها.

كان الفتى وهو عائد قد خرج عليه اللصوص وحاصروه.. هجموا عليه هجمة واحدة لكنه تحاشى سيوفهم وصار ينازلهم، وكلما أراد أن يفصل رأس أحدهم عن جسده يتحول إلى ثعبان صغير ويهرب إلى النهر، فلما تحولوا جميعا إلى ثعابين قفز الفتى وراءهم إلى النهر، راح يبطش بسيفه فى الماء حتى اختفوا منه، راح يلتفت يمينا وشمالا فلم يجد لهم أثرا.

واصل سيره على شاطىء النهر الذى يمر عبر الغابة، بدت الأحراش كثيفة وزئير الأسود يعلو كلما تقدم الفتى، توقف الحصان فى مكانه، كانت الأسود قد سدت عليه الطريق، اختبأ الفتى فى الأحراش وصار يتحرك خفية، وفى سرعة البرق أنزل سيفه على رأس أسد ففصلها عن جسده، جره بعيدا عن الأسود، ونزع عنه

جلده وأبرزه للأسود، فالتفت حول الأسد المقتول ، وصارت تلتهمه وقد غفلت عن الفتى ، الذى رأى غزالا مختبئا فحرره من خوفه، وانطلق يعدو إلى غادة الأحلام، تثاءب الفتى، نام وغادة الأحلام فوق رأسه تمسح عنه التعب وتهدىء من خفقات قلبه، تحركت فى الكوخ وخرجت فوجدت غزالا صغيرا نائما أمام الكوخ، وقد بدا عليه الانهاك وكأنه آت من مسافة بعيدة.

فرحت به غادة الأحلام وأخذت تلاعبه وتسقيه من ماء الجدول، غسلته من آثار الرحلة فراح يقفز فى الماء فرحان، أخذته إلى الكوخ والفتى نائم، اقترب منه الغزال وراح يشم وجهه ويدفن رأسه فى صدر الفتى، الذى استيقظ فى الحال، واغتبط بشدة حين رأى الغزال أمامه وغادة الأحلام تضحك من أعماقها، حملا الغزال بين أذرعهما وخرجا أمام الكوخ، تبادلا القفز أمام الغزال الذى صار ملازما لهما وينام تحت أقدامهما .

البرد..

موجات من البرد زحفت على الغابة، صفر الشجر وتناثرت ندف الثلج على رؤوس الحيوانات، غطت غادة الأحلام كوخها بغطاء من الفرو الأحمر.

كانت أجسام الأفيال أكثر عرضة للبرد، فتحركت تجاه الكوخ سحبت الفرو من سطح الكوخ بخراطيمها وغطت نفسها.

وجدت غادة الأحلام مظاهرة من حيوانات الغابة حول الكوخ، تنشد الدفء ، رأت أذرع أخطبوط ضخم تخرج من قاع الأرض، وتلتف حول أقدام الأفيال وتحاول أن تجرها إلى أسفل.

ضحكت غادة الأحلام حتى كادت أن تستلقي على ظهرها ، نادت على الفتى ليخرج إليها ويشاهد طرافة الموقف.

حاول الأخطبوط أن يجر فيلا، فوجد نفسه هو الذى اندفع إلى خارج مخبئه، تحسست غادة الأحلام أذرعه فوجدتها متجمدة، فقد تجمدت المياه على حيواناتها ولم يجد الأخطبوط ملجأ سوى الهروب من الماء ، دفأت الأخطبوط بالفرو، وأشعلت نارا حول الكوخ، صارت

تنفخ الكير والفتى يجمع الحطب ويجففه.

في الصباح طلعت الشمس قوية تبرز وجهها لغادة الأحلام، التى ابتسمت لها وقالت:

ـ هذا يكفى.

بدأت الثلوج فى الذوبان، تحركت الأطراف المتجمدة ، بعد فترة قصيرة امتلأت الأرض بالحشائش، تجمعت الحيوانات.. شكرت غادة الأحلام، وانصرفت إلى الغابة، حملت غادة الأحلام الأخطبوط وسارت به إلى الماء وهى تضاحكه قائلة:

ـ ألم تجد غير الفيل لتصطاده؟!

قفز الأخطبوط إلى الماء وأخرج أذرعه تحية لها، التفت الأفيال ورفعت خراطيمها وانطلقت تعدو خلف سرب الحيوانات.

مال الفتى على غادة الأحلام.. طوق خصرها بساعده وهمس فى أذنها، فاحمر وجهها، صار يجذبها من يدها وهما عائدان إلى الكوخ.

أول الرحلة..

الرقة وحدها هى التى استطاعت أن تهدىء من فزع الآخرين، فبينما الناس فى انتظار عودة الغائبين عنهم تاهت القافلة فى العواصف الرملية، فآثر رجال الرحلة الاختباء فى بطن الجبل حتى تهدأ الأهوال من حولهم.

مر الوقت على المنتظرين أثقل من الكابوس، رأتهم غادة الأحلام مهمومين، رق قلبها لحالهم، وبينما القلق يأكل ما بداخل صدرها صارت تطمئنهم وتختلق الأعذار للقادمين، ألقت بأطواق النجاة حول رؤوسهم فهدأوا وتريثوا، سألت غادة الأحلام طائرها بأن يطير بسرعة ويأتيها بالخبر اليقين عن المسافرين، كانت القافلة تحمل بعض المرضى لذا لم تستطع السير فى مخاطر تقلبات الجو ، عاد الطائر إلى غادة الأحلام وأخبرها أن العواصف مازالت مستمرة، فنظرت إلى السماء واسترجت الله أن يوقف الريح وأن يبعث هواء خفيفا رطبا، وظلالا تحمى من الشمس وسيرتها تجاه القافلة ، لتصحبهم فى رحلتهم.

وحين استقرت الأحوال تحركت الرحلة وواصلت السير تحت ظلال غادة الأحلام.

هبطت إلى كوخها، وجدت الفتى قلقا، طوقته برقتها، هدأت من روعه وأخبرته أن الرحلة في أمان، وأنها قادمة في غضون يوم أو يومين.

تعجب الفتى من قوة احتمالها، احتضنها، وهي بين ذراعيه أحس بدموع غزيرة محبوسة في صدرها.

الجدة تحفر الحب بأزميل فارسها في شجرة العائلة..

حكت غادة الأحلام لجدتها عن الفتى، قالت لها إنه ذائب في حبها، وإنهما يعيشان في سعادة لا حدود لها، وإنه آتى في الطريق ليخطفها على حصانه الأبيض.

أحست الجدة بغادة الأحلام جيدا، استعادت ذكرياتها، لقد عاشت تلك الأحاسيس.. كان فارسها لا نظير له، استطاع أن يخطفها ويطير في سماء الحب، مواجها المخاطر والأهوال، فعل ما لا يقدر عليه بشر، والأدهش من ذلك، أنه ترك كل الدنيا ليتفرغ لحبها، حبها فقط.

تحسست الجدة قلادة في صدرها كان قد أهداها لها، وابتسمت لغادة الأحلام حين رأتها تفعل مثلها متحررة من الزمن الماضي، ثم خلعت قلادتها وألبستها لغادة الأحلام، فشعرت بنبضها يسري في القلادة على صدرها.

خلف جذع شجرة ضخمة في الحديقة وقفت الجدة، وحركت أصابعها على رسم القلب المحفور بدقة والغائر في الزمن، فرأت وجه

الفتى ووجه غادة الأحلام يبتسمان ويتداخلان فى نبض واحد، شعرت به تحت أصابعها، انتبهت الجدة لسواد الليل وقد رُصِع بالنجوم وتموج حولها، شردت وبقى القلب مضيئا، أعادها إلى الأحلام.

كانت تعيش ملايين الأعوام فى لحظة واحدة، وترى ما لا يخطر على بال بمجرد أن تعيد قراءة خطابات فارسها.

اطمأنت الجدة بعدما وجدت غادة الأحلام امتدادا لها فى الزمن القادم والفتى امتدادا لفارسها، صارت تعتنى بشجرة الحب وترعاها بعدما أيقنت أن جذورها أقوى من الزمن.

قطرات من الندى سالت على شعر الجدة، فأحست بالبرد، دخلت إلى غادة الأحلام وأخبرتها أن الرحلة لم تأت بعد، وأنها ساهرة منذ الأمس، قالت غادة الأحلام إنها رأت الفتى وإنه أصبح شغوفا إلى رؤية أصل الشجرة، قالت الجدة:

- انتبهى فالرحلة لم تأت حتى الآن.

لم تستطع غادة الأحلام أن تخفى توترها عن جدتها، فاندفعت بين ذراعيها والدموع تغلبها، شعرت الجدة بحفيدتها وقلقها الزائد عن الحد على القادمين، فأزاحت خصلة شعرها من على عينيها وسألتها: أين فتاك الآن؟

شجر ذو رائحة نفاذة يحرق الأشباح

تفاقم قلق الفتى كالرغاوى على تأخر الرحلة، فترك غادة الأحلام نائمة وخرج وجهته الصحراء، وحيدا صار لا يلتفت وراءه.

رأته الأفيال فتبعته، ولحق به التمساح الذى حررته غادة الأحلام، وسبقه كبير الفيلة وقد أرخى خرطومه تحت قدم الفتى، فصعد على ظهره، انطلق الفيل وخلفه باقى الحيوانات التى اجتمعت حول الفتى، لتحميه من مخاطر الطريق.

كانت التلال عالية، ومن خلفها تنبثق النجوم، وتنير الطريق أمامه بمساحاته الشاسعة، ولا أثر لشىء.

شعرت الحيوانات بالعطش، فأراحها الفتى جانب عين ماء جافة من الخارج، أخذ الفيل ينزل خرطومه ويثنى ركبتيه الأماميتين، حتى وصل إلى الماء وملأ خرطومه، مده للفتى فشرب، نفخ الفيل ما تبقى من الماء فى الهواء، فانتشر رزازا رطب جلود الحيوانات التى اندفعت إلى الماء وأخذت منه كفايتها.

توالت الوديان والسهول على الفتى وهو يجول ببصره فى كل

الاتجاهات بحثا عن القافلة، تذكر العيون التى كانت ترمقه بالحسد فأدرك أن تلك العيون قد أعملت سحرها فأضلت الرحلة عن الطريق، وأصبح يحدث نفسه قائلا:

ـ لاشك أن الأمر كذلك!

من بعيد رأى بيتا من الصخور معرشا بجريد النخل وسعفه فاقترب منه، وجد به المرأة العجوز التى ساعدها من قبل، أخبرها بأمره فأشارت عليه أن يبحث في الصحراء عن أشجار لها رائحة نفاذة، يأخذ جزءا من لحائها ويحرقه قبل أن تغيب الشمس.

قطعت الحيوانات أميالا من الصحراء بحثا عن ذلك الشجر حتى وجدته، فعل الفتى ما أشارت به العجوز عليه كى يفك سحر العيون التى تضطرم بالحسد ويبطل مفعولها، عندما فعل الفتى ذلك حط طائر غادة الأحلام على كتف الفتى، وأخبره أن الرحلة قد وصلت إلى الكوخ، استدار الفتى بكل الحيوانات جهة الكوخ.

حين وصل إلى كوخه نظر خلفه فوجدالحيوانات قد اختفت، طرق باب الكوخ طرقا خفيفا وعيناه على الإبل المكفهرة من وهج الطريق ولغم الحسد وهى نائمة أمام الكوخ.

ثانى الرحلة..

جاء رسول من الرحلة وأخبر غادة الأحلام أن زوجة خالها قد مرضت بشدة مما اضطرهم إلى الدخول فى أول مدينة قابلتهم فى الطريق، وأخبرها أن روحا شريرة ظلت تحوم حولهم وتطاردهم ساعات طويلة، أنستهم المنتظرين، وأخبرها أن تلك الروح اختفت بالأمس فقط، وبعدها تحسنت أحوال المريضة، لكن الطبيب فضل أن تستريح عدة أيام قبل أن تستأنف الرحلة طريقها.

ثارت غادة الأحلام فى وجه الرسول مدفوعة بتوترها، فأخذ يهدىء من اندفاعها.. طمأنها على خالها وزوجته مرة أخرى.

استراحت غادة الأحلام حين علمت بمكان الرحلة ، أرسلت طائرها ليبحث عن الفتى ويخبره بوصول الرحلة.

دخل الفتى عليها فوجدها ضاحكة، وقد سكن قلقها، فراحا يضحكان معا على الروح الشريرة التى أرشدته المرأة العجوز لمكانها.

صارا يرتبان الكوخ من جديد ويزرعان أفرعا من الشجر ذا رائحة نفاذة حول الكوخ، ويخطان البسملة والمعوذتين بماء الذهب ويعلقانها على جدران الكوخ.

هدأت الجدة حين علمت بمكان الرحلة، أخبرت غادة الأحلام أنها سوف تسافر فى الغد، لترى خالها وزوجته وتعتنى بالصغار المرهقين من التنقلات من مكان لآخر.

حاولت غادة الأحلام أن تثنيها عن عزمها، فأخبرتها أنهم سيأتون قريبا، فقد أكد لها رسول خالها ذلك، لم تقتنع الجدة وظلت على رأيها.

التقت غادة الأحلام بالفتى وكانت موجات من الضحك مازالت عالقة بوجهها، وسرور واضح بات يغلف ضحكتها بعدما اطمأنت على الرحلة.

نزل الفتى وغادة الأحلام إلى أسواق المدينة ليبتاعا أشياء للزينة وورود ليهيئا المكان لملاقاة خالها وزوجته، قالا لبعضهما إنه يجب عليهما أن يخفيا أمورا بعينها لا يعلمها إلا هما، حتى لا تطاردهما تلك الأرواح الشريرة مرة أخرى.

ظلت غادة الأحلام فى الكوخ تترقب الأنباء التى تصل من خالها، وتنتظر ما ستفعله الجدة فى الصباح، وكان الفتى فى الخارج يعد ممرا أخضر أمام الكوخ، ويسقى الطائر من فمه ، ويعتنى بكل أمور غادة الأحلام وهو يترنم بأغنية هادئة.. زفر مستريحا وقد أنهى تجهيز الممر، قال لنفسه:

- ربما يفاجئنا الخال ويأتى قبل الصباح!

ثالث الرحلة..

بلغ التوتر أقصاه فى قلب الجد فاستسلم للهواجس التى صورت له الرحلة وكأنها نملة فى صحراء ولابد أنها هالكة.

لم يحتمل الجد منظره وهو وحيد وجاهل بمصير ابنه ومن معه، فسقط مغشيا عليه وقد احتبست الأنفاس فى صدره.

أتت غادة الأحلام فوجدت الجد متهالكا، حاولت إسعافه وقد اجتمع حولها كل من فى البيت، أخبرت أباها فى الهاتف فأتى مسرعا ونقل الجد إلى الطبيب، الذى أزال الخطر عنه وتركه ليستريح.

اتكأت غادة الأحلام على تعبها وبكائها، وغابت عمن حولها، صارت تحدث خالها وقد هبط فى مخيلتها.

- هل تأتى زاحفا!!... لقد أكل القلق قلوبنا.

- ماذا أفعل وقد أصاب سلمى سهم لا أعرف من أين أتى

- وكيف حالها الآن؟

- تحسنت كثيرا وسوف يخبرنى الطبيب خلال يومين بما يجب أن

نفعله.

انخرطت غادة الأحلام في البكاء وخالها يهدئها حتى ضحكت من فرط حبها له.

انتبهت لصوت وحركة في الممر المؤدى لحجرة جدها، فذهبت مسرعة إليه، وجدته قد استعاد وعيه، لكن نظرة حزينة تطل من عينيه.. ارتمت بين ذراعيه وأخبرته أنه قد جاءها هاتف من خالها، وأنهم جميعا بخير، ولم يضلوا الطريق، وسوف يصلون خلال أيام، اندهش الجد من حديثها ولم يصدقها.

قالت:

ـ انظر فى عينى، هل كذبت من قبل؟

فابتسم الجد واطمأن قلبه، قام من فراش المرض، تأبط غادة الأحلام تحت ذراعه ، وعاد معها إلى البيت.

أذاعت نبأ الرحلة على أهلها فهدأوا، وانصرف الوجوم عن وجوههم بعودة الجد، كانت الجدة مصرة على ما فى رأسها، وحين عاد الجد صارت تحزم حقائبها استعدادا للسفر فى الصباح.

دخلت عليها غادة الأحلام فى غرفتها، وأخبرتها أن خالها لا يرغب فى أن يذهب إليه أحد، ويكفيه ما هو فيه من تشتت بين مرض زوجته وتعب ابنه وابنته، ظلا يتجاذبان أطراف قلقهما، حتى انتزعته

غادة الأحلام، وأقنعت الجدة بالانتظار حتى تأتى الرحلة.

شىء ما دفع غادة الأحلام للخروج من البيت، فجأة هاج هزيم الرعد، وغامت السماء التى تلونت بالبرق، فانسابت خيوط المطر وتكومت على الأرض، وغادة الأحلام تسير منومة لا تعرف إلى أين، بلل المطر ثيابها، جرت مسرعة وقفزت إلى منتصف النهر، غاصت في قاع النهر وأخرجت رجلا، كانت الحياة شابكة من ذيلها فى أسنانه الأمامية، رفعته فوق الماء وعامت به إلى الشاطىء.

عالجت الرجل، دفعت روحه إلى جوفه ، بعدما استعاد وعيه شكرها وقبل قدميها، وهو لا يصدق أنه مازال حيا.

اندفعت غادة الاحلام ثانية إلى النهر، صعدت المركب فوجدته خاويا وبه بعض من ملابس الرجل، وجهت الشراع إلى الاتجاه الذى يدفع بالمركب إلى الشاطىء حتى عادت إلى الرجل.. ألبسته ملابسه، أوقفت مركبه بجانبه، قالت له:

- احترس من الأمطار والتماسيح.. فالحياة جميلة!.

بدأت خيوط المطر فى الانتهاء وقد ألقت بكل أطرافها إلى الأرض. الشمس طلت من وراء حجاب بمقدمة رأسها فانزلق شعرها فى الجو، كشفت عن دفئها وجلست على وسائدها.

أصلحت غادة الأحلام ما أصاب المركب من عطب، وفردت

الشراع.. وضعت يدها فى الماء، وتمتمت بكلمات لم يسمعها الرجل، فنامت التماسيح.

واصل الرجل سيره وعيناه لا تنزلان من على غادة الأحلام وهى ترقبه وتحاور الشمس، أوصتها على الرجل، ابتسمت الشمس استجابة لها، تذكرت أن فتاها فى انتظارها منذ الصباح، فأحست بلهفة إلى رؤياه.. ركبت الرياح وهى تغنى مرحا وحبا:

ـ حين أراك يا حبيبى أذوب فى عينيك أذوب

وفى قربك أنصهر كما ينصهر فى النار الحديد.

قلوب صغيرة تنادى بعضها البعض..

وصلت غادة الأحلام فوجدت الفتى يأكل أصابعه من التوتر والقلق عليها، ضمته بين ذراعيها، وقالت:

- حين أضمك يا حبيبى أنتشر فى الكون كما تنتشر الفضة على وجه الماء فى ليلة مقمرة.

أخبرته بما كان من أمر جدها، فجفلت مشاعره، وصار يسألها عن كل التفاصيل، ولم يهدأ حتى أقسمت له أنه أصبح فى حالة جيدة، واطمأن أكثر حين حدثته عن الرحلة والجدة.

ذهبا معا إلى النهر، وقفا على شاطئه.. رأيا السماء مرصعة بالنجوم، والقمر مكتملا يتمدد على سريره، ويفتح نافذته عن آخرها، كان ضوءه ينساب على ماء النهر رقيقا.. احتضنا جذع شجرة وتتبعا انسياب الماء فى ليونته وتجانسه.

وبينما هما صامتان مر من أمامهما مركب به رجل، وبمجرد أن شاهدهما راح ينحنى تجاههما، أشارت له بيدها، ظل الرجل ينحنى ويحييهما حتى اختفى عن أعينهما.

اندهش الفتى من الرجل وسألها:

ـ ما الخبر؟!

ضحكت غادة الأحلام، ولم تخبره بما صنعته مع الرجل، قالت:

ـ لا عليك .. ربما كان يحيي كل عاشقين يمر عليهما.

كان التجانس والانسجام ينعكس من الماء إلى عيونهما فيصمتان وينظران لبعضهما، يتحرران بخياليهما فيندمجان ويتفككان كما يتحلل الضوء إلى ألوانه المبهجة في تموجات الماء، ونهر من الحب يغرقهما فيشربان منه ولا يكتفيان من لذته.

كانت اللحظات تمر عليهما دهورا من السعادة. وضوء القمر ينعكس على وجه كل منهما، فيختلطان ولا يدري أحدهما أيهما هو الآخر، وملمس أصابعهما على جذع الشجرة أنبت البراعم، وحين انتبها لذلك صارا يلمسان كل الشجرة بأصابعهما حتى الأفرع المتدلية في النهر والبراعم تكبر بسرعة وتنمو.. في ثوان ازدهرت الشجرة ونضجت ثمارها.

كانت قلوب صغيرة تنزل من أعلى الشجرة وتنادي على بعضها، تحركت جميعها خلف الفتى وغادة الأحلام، وهما عائدان إلى كوخهما.

مظاهرة من الحب التفت حول الكوخ ولاشيء أكثر إدهاشا من وجه غادة الأحلام.

التوازن..

أصابت الفتى رعشة خفيفة من رعشات البرد، استقرت في حباله الصوتية، فخرج صوته غليظا كمن يضرب على أوتار عود جميعها في آن واحد.

كان الطريق من الكوخ إلى أسفل الوادى منحدرا بشدة، أراد الفتى أن يلعب لعبة الاتزان فأخرج الكرة النحاسية، وضعها في أعلى المنحدر، صعد فوقها وهي تنزل به متدحرجة بقوة، وهو يحرك قدمة عليها ويتوازن بذراعيه ، حتى استقر في بطن الوادى، دون أن تنفلت منه الكرة ودون أن يسقط.

كان عليه أن يثبت لنفسه أولا أنه قادر على أن يستوعب كل الأمور دون أن تهزه أو تفقده صوابه، وثانيا يثبت لغادة الأحلام أنه جدير بها.

حمل الكرة على كتفه وصعد إلى أعلى، كرر نفس اللعبة مرات كثيرة ولم يتغير اتزانه، وغادة الأحلام ترقبه من نافذة الكوخ، يكاد قلبها أن يتحطم كلما هبطت الكرة بالفتى، ولا تهدأ حتى يصعد مرة

أخرى، كانت مدركة أنها قد وضعته في امتحان صعب وأرادت أن تطمئن على عدم تبدله بعد ذلك، جلست في أسفل الوادى، استقبلته وهو نازل بالكرة النحاسية، دفعتها عنه إلى أعلى فاستقرت بجانب باب الكوخ.

دون أن ينطقا بكلمة واحدة، أقسما لبعضهما بعيونهما على الحب والحياة الأبدية معا.

اهتزت الأرض تحت أقدامهما وامتلأت بالشقوق، استمرت الهزات والمنطقة التى يقفان عليها تصعد لأعلى، تكسر الانحدار الصاعد إلي الكوخ وسقط فى هوة عميقة فردمها، تساوت الأرض حول الكوخ وانفجرت الكرة النحاسية، فصنعت بحيرة أمام الكوخ.. تسرب الماء وأحاط بالكوخ من جهات ثلاث، ثم استقرت الأمور، ابتسمت غادة الأحلام للفتى وقالت:

ـ لم تعد بحاجة إلى الكرة النحاسية فقد أصبحت متزنا بما يكفى.

أصابت الفتى حمى خفيفة ، فحملته غادة الأحلام وطارت به فوق الماء ، وهبطت به داخل الكوخ.

مرآة تحرر القمر المسحور..

اختنق القمر وركن الناس إلى أن كارثة ما سوف تحل عليهم، خرج أهل القرية إلى الأماكن الواسعة ورؤوسهم تجاه السماء، يدقون الطبول ويرددون:

يا بنات الحور اتركن القمر

القمر مسحور ما عندنا خبر

بدت السماء متشققة وثعابين سوداء خرافية الحجم تحاول أن تسقط على الناس.. صرخ الأطفال، والنساء بكين، والرجال وقفوا مندهشين لا حول لهم ولا قوة ، اجتمع الشيوخ فى المساجد من خلال المآذن يهدئون من روع الناس..

استمرت الطبول فأخافت الثعابين وأبقتها فى مكانها، وبينما الناس فى حيرة وخوف وفزع من أمرهم مر عليهم الرجل بمركبه، فصاروا ينادونه.. اقترب الرجل من الشاطىء ونزل إليهم، تعجب من حالهم وقال:

ـ هذه غمة لا يكشفها إلا الله.

وأشار عليهم بأن يذهبوا لغادة الأحلام، فقد تساعدهم.

أخبرهم الرجل بمكانها، ونزل إلى مركبه ، وانصرفت معه جماعة منهم، وعاد إلى غادة الأحلام.

نزلوا إلى شاطىء بجوار الكوخ، دقوا باب الكوخ فلم يجبهم أحد، لم تكن غادة الأحلام ولا الفتى فى الكوخ، فجلس الناس أمام الباب ينتظرونهما .

كانت غادة الأحلام قد حملت الفتى إلى الغابة وقد اشتدت عليه الحرارة ، بحثت عن عشب لمريضها، أرشدها الطائر لمكان العشب فاقتلعته ومضغته، ثم أخرجت العصارة من فمها وأطعمتها للفتى، كررت ذلك ثلاث مرات فبرد جسم الفتى فى الحال، وانتفض واقفا بعدما استرد قوته، عادا إلى كوخهما فوجدا الناس نائمين أمام بابهما.

أحس الناس بهما فاستيقظوا وأخبروهما بما ألم بهم، فقالت:

ـ عودوا الآن وسوف أنظر فى الأمر.

ظن الناس أنها لن تساعدهم فعادوا إلى المركب مهمومين، ورجعوا والرجل بينهم ينظر إليهم بنظرات منكسرة.

أخبرت غادة الأحلام طائرها بما يجب أن يفعله وينفذه حرفيا، فانطلق من فوره، دخلت غادة الأحلام إلى الكوخ ودخل الفتى خلفها،

قال :

- لقد كان بينهم الرجل الذى كان يلوح لنا ونحن واقفان جانب الشجرة قالت:

- نعم إنه هو.

ابتسمت وجذبته من يده وقالت:

- تعال.. سوف أريك أشياء لم ترها من قبل.

أخرجت غادة الأحلام من دولابها مرآة صغيرة وقالت للفتى:

- أغمض عينيك وانظر.

كان الطائر قد وصل إلى القمر المخنوق، دار حوله سبع دورات، وفى كل مرة ينظر تجاه غادة الأحلام.. انقض الطائر فجأة على غفلة من الثعابين، وقبض على طرف الحبل الملفوف حول رقبة القمر، أعاد السبع دورات التى دارها من قبل. والحبل ينفك بدورانه، وفى نهاية اللفة السابعة تحررت رقبة القمر.

وكانت ذيول الثعابين مربوطة بالطرف الآخر للحبل، فصار الطائر يجذبها بطيرانه والسماء تنجلى وتبيض والناس يشاهدون ذلك، فيتعجبون من فرج الله عليهم.

أثر هبوط الطائر وصعوده على الثعابين فأغمى عليها، عندئذ نزل الطائر إلى الناس وأخذ ينبش بقدميه ومنقاره ففهموا أنه يريد أن

يصنع حفرة فحفروها له، بعد ذلك سحب الثعابين من أذيالها ووضعها فى الحفرة، والناس يشاهدون ويتعجبون من تصرف الطائر وقوته رغم حجمه الصغير.

عاد المركب إلى المكان الذى ذهب منه الناس مع الرجل فأنزلهم ومضى فى طريقه.

أتى الطائر بجمرة مشتعلة ورماها فوق الثعابين فاضطرمت النار فى الحفرة، عادت الجماعة من عند غادة الأحلام فوجدت القمر ساطعا، والفرح يعم القرية، فأخذوا يستفسرون عما حدث.

رأوا الطائر والناس مجتمعة عنده، فهللوا، فقد رأوه من قبل، قالوا:

- هذا طائر غادة الأحلام.. والله لقد ظننا أنها لن تساعدنا، ولكنها أتت بما لا يقدر عليه أحد .

صاح الفتى وهو ينظر فى المرآة:

- تلك الثعابين ... لقد رأيتها من قبل.. آه تذكرت، لقد هاجمتنى فى الطريق مرة وفرت منى إلى النهر..

لقد كبرت واستفحلت حتى كادت أن تهلك أهل القرية.

أعادت غادة الأحلام المرآة إلى دولابها، نظرت من شباك الكوخ، فوجدت الطائر عائدا، حط على ماء البحيرة ونزل ليستحم من آثار

المعركة ، أغلقت الشباك واقتربت من الفتى، قالت:

ـ لقد أصبح الناس فى مأمن من تلك الثعابين الشريرة.

وقالت:

ـ الحمد لله الذي شفاك.. أردت أن أريك ذلك حتى تسر وتهدأ وتنسى مرضك.

كان الفتى محمر الوجنتين، فجذب غادة الأحلام إليه وقال:

ـ وأنا أيضا أريد أن أريك أشياء لم تريها من قبل.

وغابا فى دوامات الحب الدافئة.

رابع الرحلة...

رأى الطبيب أن حالة سلمى غير مستقرة، ويجب أن تبقى تحت الملاحظة الدائمة عدة أيام أخرى، وقع الخال تحت أيدى التعب والإنهاك، لم يستطع المواصلة، فنام فى الردهة الخارجية.

سيطر الأرق على غادة الأحلام فأتاها الهاتف وأخبرها بحال الرحلة ، فبكت بكاء متواصلا حتى شاهدها أبوها، فقام فى الحال وجهز أشياء للسفر إلى خال غادة الأحلام.

بسط الوالى بساطه الطائر وملأ صدره بأنفاس غادة الأحلام وانطلق، حاول أهل البيت الإمساك بطرف البساط والتعلق به ، لكن الوالى وشوش البساط بأن ينتفض، ففعل وفر منفلتا منهم، عادوا ينتظرونه حتى يجيء لهم بنبأ عن الرحلة.

رجعت غادة الأحلام إلى الفتى وأخبرته أنها سوف تغيب عنه قليلا وعليه ألا يقلق عليها، انطلقت إلى الغابة.. وجدت ربوة عالية بين الأشجار، فجلست عليها وظلت تبكى مدفوعة بحنينها الجارف إلى خالها وخوفها عليه، وكان الطائر كلما رآها هكذا يصير حزينا،

وترتخى أجنحته على جانبيه.. يتقلب فى الأرض كالذبيح.

لم تنتبه غادة الأحلام له واستمرت فى بكائها، والطائر لا يقدر على فعل شيء حتى انقضى نصف النهار، فأخذ يزحف بجسمه الضئيل إلى الكوخ، قطع نصف النهار الآخر فى الزحف حتى وصل إلى الكوخ، وهناك فرد جناحيه وارتفع عن الأرض، وصل إلى شباك الكوخ، أصدر صوتا عرفه الفتى، فقام إليه، رأى الفتى الدموع فى عينى الطائر ففهم أن أمرا ما قد أصاب غادة الأحلام، ففتح باب الكوخ سريعا، وحمل الطائر على كفه، وهرول تجاه غادة الأحلام.

رآها الطائر جالسة على وضعها منذ الصباح ، فسقط على الأرض وأخذ يتقلب كأن لوثة قد أصابته.

اندفع الفتى إلى غادة الأحلام، احتضنها وجفف دموعها بأصابعه وهى شاردة لاتنطق. كانت لمسات الفتى قادرة على طرد الهواجس من رأسها وإذابة الملامح المتجمدة من وجهها فابتسمت حينها، توقف الطائر ورفرف حولهما بجناحيه ودار فى سماء الغابة، قال الفتى لغادة الأحلام:

ـ لن أتركك بعد ذلك فريسة للهواجس الشريرة.. بل لن أتركك وحدك منذ هذه اللحظة.. هيا بنا إلى الكوخ.

الصياد والمارد..

وهما عائدان إلى كوخهما طار الطائر عاليا وصحبهما من بعيد، شاهدت غادة الأحلام صياد الغابة مختبئا خلف شجرة وطرف بندقيته مصوب تجاه طائرها، أشارت إلى الطائر ففهم إشارتها وهبط إلى كتفها وحط عليه.

ضرب الصياد جذع الشجرة بقدمه وتأفف من الغيظ، نادت عليه غادة الأحلام فاتجه إليها، وقف أمامها منكسا رأسه ، قالت له:

- مر عليّ في الكوخ كل صباح وسوف أعطيك ما يكفيك ويكفي أولادك ، لكن أعطني البندقية .

تردد الصياد قليلا ، ثم أعطاها لها وانصرف.

أخذ الفتى البندقية ، حملها في كتفه، وأخذ يداعب الطائر، ارتفع الطائر إلى سماء الغابة، وعاد بسرعة إلى كتف غادة الأحلام منزعجا من شيء رآه.

تسلق الفتى شجرة عالية ونظر في اتجاه الأفق البعيد، رأى الجبل يتحرك تجاههما، أخبر غادة الأحلام فتوارت بين الأشجار،

وحين اقترب الجبل بانت ملامحه.

كان ماردا عملاقا يهز الأرض بأقدامه، أسود كثيف الشعر، كان الشيطان بعينه، يخرج الهواء من فمه ريحا عاتية يكاد يقتلع الشجر من جذوره. خاف الفتى على غادة الأحلام، فأشار للطائر أن ينقر فى أعلى رأس المارد ويشاغله حتى يتدبر الأمر.

صار المارد يطارد غادة الأحلام مفتشا عنها بين الأغصان، والفتى فى أعلى الشجرة يصوب البندقية تجاه المارد ولا يطلق عليه الطلقات، وكأنه فى انتظار نقطة ما بعينها يفجر فيها البارود، والطائر يدب منقاره بقوة فى رأس المارد فلا يتأثر.

دخل الطائر من فتحة أنفه وأخذ يحارب بمخالبه فأصاب المارد بالذعر، ركع على ركبتيه فارتجت الأرض، أصدر صوتا مدويا متوسلا إلى الطائر أن يخرج.

نادت غادة الأحلام على الطائر، فسكت عن الحركة، وبقى فى أنف المارد، راح المارد يبعث إشارات لغادة الأحلام تنم عن إطاعته لها. نزل الفتى إلى غادة الأحلام وضحكا معا، قالت:

ـ هذا لك.

مشيرة إلى المارد، نظر الفتى إليه نظرة يحاول بها أن يصل إلى حدوده، وقال:

– ماذا أفعل به؟!

قالت :

ـ عسى أن ينفعنا .

قال:

ـ فى أى شيء؟!

طلب الفتى من المارد أن يعيدهما إلى الكوخ فحملهما تقريبا بين أصابعه ووضعهما أمام الكوخ ،خطا خطوة واحدة وجلس أمام الكوخ، ضحكت غادة الأحلام وقالت للفتى:

ـ أترى؟!

أخبرت طائرها أن يبقى هادئا إلى حين فأطاعها.

دخلت إلى الكوخ والفتى ينظر للمارد متعجبا من خضوعه واستكانته ، فى الليل نام المارد أمام الكوخ، فخرجت غادة الأحلام خلسة وأخرجت الطائر من أنف المارد، نظرت إليه بحنان، وأشارت إليه أن يسكت، ودخلت به إلى الكوخ دون أن ينتبه المارد لما حدث.

فى الصباح جاء الصياد إلى الكوخ، فوجد المارد جالسا أمامه ولازال نائما، وقف الصياد مندهشا وراح يقترب فى حذر وخوف. رأته غادة الأحلام من النافذة فخرجت إليه، سألها عما وعدته به فأشارت إلى المارد وقالت:

ـ خذ هذا .

ظن الصياد أنها تهزأ به ، فسكت ،قالت:

ـ خذه وأطلب منه ما تريد ، وسوف يلبى طلباتك فى رمشة عين.

قال الصياد:

ـ وكيف أروضه؟

قالت:

ـ لقد روضته بالأمس.. وإذا لم يطعك ناد على الطائر، وسوف يخر لك طائعا.

أيقظ الصياد المارد فزمجر بصوته، أشار الصياد إلى أنفه، فخضع له فى الحال ، طلب الصياد من المارد أشياء على سبيل التجغادة فلبى له ما طلب، نام الصياد والمارد فوق رأسه يحرسه،

لم ينتبه المارد إلى أن غادة الأحلام قد أخرجت الطائر من أنفه وأنه أصبح خاضعا بلا مبرر.

حين راح الصياد فى نوم عميق، ذهب المارد إلى غادة الأحلام وأخذ يتوسل إليها أن تحرره من الطائر، فضحكت، وقالت:

ـ على شرط ألا تؤذى أحدا .

فأقسم لها ألا يؤذى أحدا ما بقى حيا .

قالت:

ـ اذهب الآن إلى الصـيـاد وضـع فى بيـتـه قنطارا من الذهب.. واعطس بقوة وسوف تصبح حرا.

جن المارد من فرحتـه، فعل مـا أمرته به غـادة الأحلام، فأصبح حرا، عاد سعيدا إلى مغارته وقد أصبح ودودا طيبا لا يؤذى أحدا، أفاق الصياد من نومه فلم يجد المارد جرى إلى غادة الأحلام. أخبرته أنها قد حررته ، وأن بيته أصبح ممتلئا بالذهب.

قال:

ـ الحمد لله الذى خلصنى منه.

ورجع إلى بيته يحلم بالذهب ويشكر غادة الأحلام.

خامس الرحلة..

وصل الوالى إلى مكان الرحلة فوجد الخال متهالكا والدموع متحجرة فى عينيه، وحين رآه أمامه استراح بين ذراعيه وأخذ يقاوم دموعه دون جدوى.

أخبره الطبيب أن سلمى تحتاج إلى عناية فائقة ودائمة حتى تستقر حالتها، نظر إلى سلمى وجدها غائبة عن الوعى، وبين فترة وفترة - كلما انتبهت لما حولها - تبكى متألمة وتنادى على والديها.

ذهب الوالى إلى الابن والابنة وراح يداعب طفولتهما، فكانا واجمين طول الوقت وقد فقدا نضارتهما. جلس مع الخال فأخذ يقص عليه ما حدث:

ذهبت سلمى مع أبيها إلى الجبل بعربته، وكان الطريق خاليا، وعند المنحنى انفلت مقود العربة من يده، فانقلبت بهما عدة مرات، من حينها وهما فى المستشفى فى حالة خطرة بعدما أجريت لهما جراحة دقيقة.

قرر الوالى أن يبقى بجانبه حتى تتماثل سلمى للشفاء، أرسل

رسولا إلى غادة الأحلام يطمئنها أنهم عائدون فى القريب.

كانت غادة الأحلام حين أتاها الهاتف بجانب جدها تعد آنية الزهور، والجد ينظر وعيناه ترقبان تبدل ملامحها محاولا استشفاف ما فى الطرف الآخر، وكانت الجدة مبعثرة فى قلقها وتوترها، فدخلت إلى غرفتها وصارت ترسم قيودا وطيورا مكبلة بالحديد، عكست جو الحزن الذى آل إليه البيت فى انتظار الرحلة ، رسمت سجنا فى داخل البيت ومفتاح بوابته الضخمة مكسور إلى نصفين.

قرأت غادة الأحلام ما يدور فى مخيلة جدتها، فأشفقت عليها منزعجة من حالها، ابتسمت لها الجدة وقالت:

- مازال هناك أمل.. انظرى جيدا إلى ذلك المفتاح .. فمازال نصفه موجودا كبارقة أمل نحن فى انتظارها.

شعرت غادة الأحلام بالاختناق من جو الانتظار والصمت، فخرجت مسرعة إلى كوخها، وضعت يدها على صدرها وانطلقت. نظرت إليها الجدة من بعيد فعرفت أن قيود لوحتها مجرد خيال، وأن السجن لايحتاج لأكثر من هاتف يخبرهم أن الرحلة قد وصلت، وسوف يتهدم تلقائيا.

شعرت غادة الأحلام بجفاف يجمد أطرافها، فألقت بنفسها فى النهر وراحت تشرب منه بنهم، والموج يندفع إليها خفيفا خفيفا،

سرى فى أوصالها فأحست بنشوة وسعادة بالغتين، سبحت فى الأحلام حتى لوح لها القمر من بعيد بأنه على وشك أن يذهب لينام.

ابتسمت له، خرجت من النهر، شبكت أصابعها فى أصابع الفتى وعادت معه إلى الكوخ.

صور ملونة بالحب..

الفتى وغادة الأحلام فى طريقهما إلى الكوخ .. يتحدثان ويتهامسان.. وبينما هما كذلك هبطت أضواء الفلاشات عليهما من كل مكان.

ظنا أن احتفالا ما يقام، وأن تلك الفلاشات تلتقط صور الحفل، صارا يخمنان كنه تلك الأضواء حتى وصلا إلى كوخهما، جلسا برهة أمام الكوخ ودخلا.

وقعت عيونهما على صور ملتقطة حديثا، مبعثرة فى أرض الكوخ، فقاما بجمعها واحدة تلو الأخرى والاندهاش لا يفارق ملامحهما، كانت الصور لهما فأخذا يسترجعان تفاصيلها بروية وهدوء ، وهما يغيبان فى زمن التقاط الصور صورة بعد صورة:

- ١ -

غادة الأحلام تجلس على شاطىء النهر مغمضة العينين، الفتى واقف بجانبها يحتضن أصابعها ويبتسم، ومن بعيد تبدو قمة البرج وأضواء الأوبرا فى الخلفية السوداء، وأعمدة الإنارة تظهر فى خط

مستقيم كالنجوم المنتظمة.

وغادة الأحلام تغمض عينيها على الأحلام المدونة فى خطاب الفتى.

-٢-

الفتى وغادة الأحلام واقفان، أصابعهما متشابكة ، وعيونهما تنظر إلى داخل قلبيهما.

والإضاءة المنعكسة لأعلى خلفهما ترسم جوا فرعونيا، بديا كفرعونين تخلصا من الزمن القديم، وتخطيا عتبة المستقبل.

-٣-

ذراعا الفتى وغادة الأحلام متشابكة، وهما جالسان فى أحراش الغابة، وينظران تجاه الدنيا بكل ما فيها من حب، وخلفهما تمثال دبت فيه الروح من وهجهما.

-٤-

غادة الأحلام والفتى يركنان ظهريهما على عمود ساعة الميدان ويضعان قدما على قدم، وعقارب الساعة قد ارتبكت، فلم يعد للزمن قيمة أمام كل ذلك الانسجام.

-٥-

على السلالم الإلكترونية صعدا فى اتجاه العلامات الإرشادية:

«هنا أطفال هابطون من الجنة للتو»

ظلا يتبعان الإرشادات، وحين وصلا إلى نهاية العلامات، لم يكن غيرهما في المبنى، نظرا لبعضهما فدفعتهما البراءة للضحك من قلبيهما بشكل متواصل.

-٦-

الفتى يجلس إلى جانب غادة الأحلام ويدها اليسرى على قلبه، والعيون مغلقة بابتسامة خفيفة تمزج ملامحهما، والإضاءة ناعمة حولهما، وفي الخلف نافذة تحجب غيرة النجوم والكواكب السيارة في فلك مل من الدوران ولم يعثر على الحب.

-٧-

في بهو المعبد الفرعوني العتيق غادة الأحلام قابضة على يد الفتى، مبتسمة للأمنيات التي تحققت وخلفهما الندى، وقد أرخى سعف النخيل، والشعلة منطفئة من الرهبة التي حضرت مع غادة الأحلام. وثمة مرايا تحبس الضوء وترهبه من حضورهما.

-٨-

نظرت غادة الأحلام إلى الضوء، الذي وقف أمامهما وغطى وجهيهما.

نظر الفتى إلى غادة الأحلام وابتسم لشرودها ونظرتها البعيدة.

«ترى في أي شيء تفكر؟!»

سأل الفتى نفسه ودقق فى وجهها، كانت قد رأت من بعيد بعض الخفافيش فى أركان المكان منزعجة من الضوء.

-٩-

جلسا متلاصقين أكثر من اللازم بشكل لفت انتباه العمال الذين كلفتهم غادة الأحلام بحمل الأواني المرمرية ووضعها خلفهما.

كانت قد نقلت محتويات بيتها القديم إلى كوخهما، فصار الناس يتعجبون من أشيائها.

وهاهم قد انصرفوا ولم يبق فى الصورة غير الفتى وغادة الأحلام وتلك الأشياء.

أحصى الفتى عدد الصور التى وجداها فى الكوخ فكانت تسعا، تحمل فى مضمونها ملايين الأحلام وملايين الأعوام من الحب، أعطاها لغادة الأحلام فوضعتها فى سوار ذهبى.

بعدها داخت من التخمة التى سرت فى قلبها، أحست أن الدنيا لا تكفى لانطلاقها.

خرجت من الكوخ وصعدت فوقه، فتحت ذراعيها عن أخرهما، وطارت تنظر للحالمين فى نومهم وتحقق أمنياتهم قبل أن يصحوا من نومهم.

بعدما استيقظوا وجدوا ملابسهم قد تبدلت وهيئتهم قد تغيرت، فعلموا أن غادة الأحلام قد زارتهم. اتفقوا جميعا على يوم واحد يرحلون فيه لكي يروا كوخ غادة الأحلام وينعموا بحضورها بينهم، يشكرونها ويدعون لها من قلوبهم.

رجعت غادة الأحلام إلى الفتى فوجدته يرتب نفسه ويتهيأ للقاء الناس.

حماقة الشمس..

هناك فى أقصى الشمال خرج أهل الفتى فى الليل إلى البحيرة، يلتقط كل واحد منهم صدفة محار فارغة من بين رمال الشاطىء ويوشوشها بأمانيه، ويقذفها إلى الماء، فتتوالد الدوامات حول سرير القمر النائم فى البحيرة فيصحو من نومه، يجمع الأصداف ويصعد من قاع البحيرة ويذهب إلى غادة الأحلام، يجلس جانبها وهى تسمع الوشوشات من الأصداف ويعود بها فارغة، ويلقيها على الشاطىء.

غافل الأطفال أمهاتهم.. استيقظوا عند الفجر.. عادوا إلى البحيرة، نظروا فى الماء.. مدوا أذرعهم فيه وأمسكوا الأسماك من ذيولها.. رجعوا إلى ديارهم فى الصباح.. صنعوا جلبة لأمهاتهم فاستيقظن وطهين الأسماك لهم فى ساحات الدور.

رجع الرجال من أعمالهم فى البحيرة، وجدوا الأطفال قد شبعوا، فاستفسروا عما أكلوا، أجابت الأمهات أن غادة الأحلام قد زارتهم وأطعمتهم .

ظلت غادة الأحلام تحقق الأمنيات إلى أن جاء يوم وخرجت فيه

الشمس غاضبة وحرارتها الشديدة لا يحتملها أحد، هرع الناس إلى البحيرة ، نزلوا في الماء ليرطبوا أجسادهم، اشتد قيظ الشمس، فبخرت الماء ورفعته إليها، حتى جفت البحيرة، ولم يعد فيها غير أكوام من الملح تحيط بالناس وتهلكهم.

أغمضت الشمس عينيها حتى لا تستدرجها الرحمة فترأف بهم.

وشوش الأطفال أصدافهم وألقوها بضعف تجاه البحيرة.

صعدت رائحة اليود إلى أنف غادة الأحلام، فانزعجت ، وقامت بسرعة، ألقت نظرة على الناس، تعجبت من أمر الشمس وما فعلته، ذهبت إليها وراحت تسترضيها حتى حكت لها عن سبب غضبها عليهم، قالت الشمس:

ـ إنهم يفضلون القمر عليّ.

قالت غادة الأحلام:

ـ كيف ذلك؟

قالت الشمس:

ـ إنهم طوال النهار نائمون لا ينظرون إليها، وساهرون طوال الليل في العراء يتسامرون مع أخي القمر ويحكون له من حكاياتهم.

ضحكت غادة الأحلام من حماقة الشمس وغيرتها، وعدتها أن تنبهم إلى ذلك، لكن عليها الآن أن تنقذهم من الموت، وسوف يعرفون

فضلها ويتحاورون معها حين تخرج إليهم لطيفة ودافئة فى أيام البرد.

هدأت الشمس وسيرت الرياح التى حملت السحاب، وراحت تضربه بيديها ، فتساقط المطر بكثافة شديدة إلى أن امتلأت البحيرة وذاب الملح فى فرح الناس وابتسامة غادة الأحلام.

سادس الرحلة..

أخذ الوالى الطفلين وراح يمرح معهما فى المروج الخضراء، والطفلان يخرجان شيئا فشيئا من وجومهما بمصاحبته، أنساهما الوالي ما حدث لهما.

حين رأى الخال طفليه وقد استعادا مرحهما تبدلت ملامحه وسعد بهما، أرسل هاتفا يخبر غادة الأحلام أن سلمى قد تحسنت كثيرا، وأن وجود أبيها معهم قد خفف من معاناته وأزال الهم عن الطفلين.

سعدت غادة الأحلام بحال خالها، تقلبت فى فراشها، رفعت الغطاء عنها، ذهبت إلى الشرفة والجو غائم، رأت ندف الثلج تهبط بخفة وتستقر على أغصان الشجيرات وتكسو الحشائش بلون شفاف.

رأت الخال وزوجته سلمى فى زى عرسهما الأبيض صاعدين إلى أعلى الجبال، وخلفهما جوقة من البنات الصغيرات بزيهن السكرى الموحد يترنمن بالأناشيد، مبللات بندف الثلج وعرق انطلاقهن

ومرحهن، كن يحيطن بالعروسين والأمنيات في عيونهن تود لو تكبر قبل أن يذهبن إلى بيوتهن ويصبحن عروسات، ومن بين أرجل الفتيات بدت زهور القرنفل تحيط بالبيت وتصعد درجات السلم.

خطف الخال سلمى من بين الحاضرين والحاضرات، وصعد في ممر الزهور إلي بيتهما المستكين في حضن الجبل.

هناك فارت السعادة إلى خارج البيت، فأذابت الثلوج المتراكمة في فصل الشتاء، وزهرت زهور القرنفل قبل أوانها، غدا الجو ربيعا دائما، دققت غادة الأحلام في ملامح سلمى فوجدتها تحمل قسماتها، انتبهت لنداء الجدة، فأغلقت باب الشرفة على خيالها الذى أعاد إليها الفرح الذى مر عليه ستة أعوام.

أخبرتها الجدة أن خالها ينتظرها على الهاتف، فانطلقت تعدو إليه وهى لم تفارقه لحظة واحدة.

قال الخال:

ـ ماذا تفعلين؟

قالت:

ـ كنت أشاهد صورك مع سلمى.

ضحك وقال:

ـ دائما كما أنت.. تفرطين فى الرومانسية حتى فى أحلك المواقف.

قالت:

ـ ماذا أفعل وأنت تتركني هكذا بدون اتصال.. إنني انشغل عما حدث لك بك..

قال:

ـ وفتاك.

قالت:

ـ لقد أصبح مثلي.. مهموما وقلقا.. ويتابع أخبار رحلتك من خلالي.. لقد أصبح كل الناس في انتظارك، حتى أهله تجهزوا وسيروا مراكبهم إلينا.. متى ستأتي؟

قال:

ـ قريبا.

وانتابته موجة ضحك عالية جرفت الخط ، فانقطع الاتصال.

أصاب غادة الأحلام بلل الضحك، فأخذت تضحك هي الأخرى،

أتت الجدة وراحت تنظر إليها وتضع يدها على جبهتها فلم تتوقف ، ضحكتا معا بشكل هيستيري أيقظ جميع من في البيت.

إيزيس و أوزوريس..

بلغ التوتر بالجدة مبلغ الفيضان فأصمت أذنيها عما حولها، وذهبت إلى قصرها حيث السكينة والهدوء يغلفان كل شيء، والجد قابع في غرفة مكتبه يخفى ألمه بين الكتب، ابتسم من خلف نظارته حين وجد غادة الأحلام قد اقتحمت عليه عزلته، وجلست فوق المكتب.. أغلقت الكتب وأمسكته من يده وقالت:

ـ تعال يا جدى أحتاجك فى أمر هام.

خرجا معا يتنزهان على شاطئ النيل، صعدا إلى قمة البرج، اقتربا من النجوم، نظرا تجاه النيل فوجدا مركبا شراعيا يتهادى فى دعة وطمأنينة، بات الجد ينظر فى التاريخ، حكى لها عن إيزيس وهى تحنو على طفلها حوريس وهما فى المركب ينصبان مع ماء النيل تجاه الشمال بحثا عن أوزوريس، قال الجد:

ـ هل تعلمين.. منذ طفولتك وأنت مثل إيزيس.

ابتسمت غادة الأحلام وهى تشاهد مع الجد منظر النيل من أعلى البرج، وراحت تخبره عن فتاها وعن حبهما، انطلق لسانها مصورا

ما يجيش بصدرها من عاطفة، صورت الفتى وكأنه بطل أسطوري خرج من التاريخ.

ضحك الجد بعدما أخبرته بكل شيء عن الفتى، نظر إلى النيل، صمت قليلا وقال:

- ها أنت قد وجدت أوزوريس .

ضحكت وقالت:

- نعم لكن أسطورتنا أقوى منهما .

قال:

- سوف أرتدى ملابس الكاهن الأعظم وأبارك زواجكما.

فرحت غادة الأحلام بحديث جدها، نظرت حولها لحوائط البرج، رأت الرسوم الفرعونية والملابس الفرعونية والنيل القادم من التاريخ، جميعها فى آن واحد حولها، والسماء قريبة بما يكفى.. مدت يدها.. قبضت على نجم ووضعته فى قلبها، تعجب الجد منها، قالت:

- سوف أفسر لك فى الوقت المناسب.

كانت فرحتها لا تُعادل حين فعلت ذلك، فالنجم يدخل ضمن برج القوس وكان متعلقا بمصير الفتى، ويرصد حركاته منذ ولد، قالت غادة الأحلام ذلك لجدها وهما هابطان من البرج، وأضافت:

- الآن أصبح الفتى مرتبطا معى بمصير واحد، وعمر واحد، وقلب واحد وأستطيع أن أحميه على مر العصور.

أم نبيلة إلى حد الشفافية..

أخبرت غادة الأحلام أمها أن الفتى قد ملك قلبها، وأنها منذ عرفته وهي تشعر بإحساس جارف يدفعها إليه دفعا مجنونا، وأنها أصبحت زهرة يانعة تقطر حبا، وأخبرتها أنها قد نظرت إلى السماء وفكرت بروية، وأن الله قد اطلع عليهما، وأنعم عليهما برباط الحب، وأنهما لم يفترقا منذ تلك اللحظة.

كانت الأم رقيقة إلى حد الشفافية فظلت تستمع لابنتها وكلها ثقة وطمأنينة وفخر بعقل ابنتها الراجح وعاطفتها المتأججة معا. متفهمة لما يدور بقلب غادة الأحلام، فقد ملكتها زمام أمرها منذ زمن طويل وهاهي تصرف شئونها على نحو مريح لتفكيرها وتطلعاتها، أدركت غادة الأحلام أن أمها حنون إلى درجة تدفعها إلى حضنها تلقائيا بمجرد أن تراها، وضمة واحدة من ذراعيها تجعلها تعبر ملايين السنين دون أن تشعر بألم، لذا فقد احتوت ابنتها وصارت تعد معها مراسم الزواج سعيدة وراضية.. فتحت كنزها وأخرجت الذهب، زينت غادة الأحلام وهي تراها ملاكا يلمس الأرض لسا خفيفا، وهما

تتحدثان حول الفتى والزواج والمستقبل والأحلام، والخيالات التى تجسدت فى نور ساطع.. أصبحت تمشى فى زهو والفتى وغادة الأحلام يرعيانها.

الموسيقى خافتة فى ركن قصى تلمس المشاعر بخفة وبساطة، تنفست غادة الأحلام بعمق وافترشت الراحة جسدها، استراح قلب الفتى معها وأيقن أن أحدا لا يعقد أمور زواجهما، وأن قلبيهما سيظلان متلازمين إلى الأبد.

وبينما هما على تلك الحالة كان تجمهر فى البيت يطل برؤوس مشرئبة، وعيون مفتوحة على آخرها تترقب، وكان الناس ما بين مصدق ومكذب بما يراه من بساطة وانسجام وحب يملأ الدنيا بالزهور، حتى أنزل الفتى حصانه الأبيض وصعد فوقه، أركب غادة الأحلام خلفه وهى تحتضنه بذراعيها، نثرا الورد على رؤوس الناس وطارا إلى كوخهما جانب النهر.

القمر الملون بالأحلام..

ملأت موسيقى الناى ليالى القرى والنجوع والكفور، والرعاة يصلون الليل بالنهار، يتغنون بحب الفتى وغادة الأحلام، على طول شريان النيل من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، والأغنيات تختلط بماء النهر فيشربها الناس، وما إن تستقر فى بطونهم حتى تجلى صدورهم من الداء وترتاح عاطفتهم .

أصبحت غادة الأحلام بالنسبة للفتى أعظم أمانيه وأهم ما طلعت عليه الشمس منذ بدأ الخلق، فهو منذ ولد فى الدنيا وثمة موسيقى تنبعث من اتجاه ما لا يدركه، حبا في طفولته ومشى حتى صار عمره عامين، تسلل فى ظلام الليل إلى النهر، رأى فوق الماء أضواء مبهرة، بيتا تخرج منه نفس الموسيقى.

شاهد المنظر رغم طفولته مبهورا، مشى فوق الماء ودخل البيت، وجد أناس بثياب بيض يطوفون حول مولودة ولدت للتو وأمها بجانبها.

غادة الأحلام وأمها والجدة تباركها، وتطلع الأم على أسرار لا

يعلمها أحد، والأم بدورها قد نقلت تلك الأسرار لغادة الأحلام فيما بعد، وقف الطفل ذو العامين مشدوها لايقدر أن يفتح عينيه من شدة الضوء الخارج من وجه المولودة، دقق النظر إلى أن تبين ملامحها.

ظلت الناس تطوف حتى انساب الفجر، وخرج والد الطفل للصلاة، صفق الباب خلفه بقوة فاهتز ماء النهر وتبخر فى السماء حاملا ما فوقه، صحا الطفل وراح ينظر حوله فى الظلام والموسيقى مازالت عالقة بأذنيه، كبر الطفل وأصبح شابا فى السابعة والعشرين،وكان يجوب البلاد متتبعا تلك الموسيقى التى لم تبارحه قط، نام على شاطىء النهر فخرجت حية من مستنقع نتن، دارت حول رأسه تتخير مقتلا له دون أن يشعر بها، عند ذلك نزلت غادة الأحلام من بيتها وأحاطت بالفتى، حالت بينه وبين الأفعى التى فرت مذعورة وهى تعض على أنيابها، عادت إلى المستنقع.

أيقظت غادة الأحلام الفتى فوقف مندهشا منها، كان يحلم بتلك الموسيقى دون أن ينتبه لما دار حوله وهو نائم ، ارتعش جسمه من المفاجأة ، وصارت أذناه تنتبهان وتسترجعان صوت غادة الأحلام حتى لم يعد قادرا على حمل جسده، فاستأذن منها كى يوارى ارتعاشاته عنها، حاول أن يهدىء نفسه، فقلبه صار يدق بعنف وكأنه خارج جسده، استجمع شجاعته وأوعز لخجله أن يتوارى فى

ملابسه، فهاهى المولودة التى رآها منذ خمسة وعشرين عاما، وها هو صوتها الذى يسمعه منذ ولد.

إنها هى فقد تيقن من ذلك بمجرد أن وقع بصره عليها، عاد إليها فوجدها مازالت فى مكانها، لم يكن فى حاجة إلى أن يقول شيئا، كان كمن وصل إلى نهر بعد رحلة مقفرة فى صحراء جرداء تلهبها الشمس ويحجرها الجفاف.

نظر إليها نظرة واجدة فارتوى، لم تتركه غادة الأحلام فى صمته طويلا وأخبرته أن الناس وهم يطوفون بها عند مولدها طافوا خمسة وعشرين مرة حولها، وأخبروها أنها حين تصل إلى الخامسة والعشرين سوف يكون لها شأن آخر، واعترفت له أن الغلاف السميك الذى كان حول قلبها قد ذاب حين رأته، صار قلبها حرا يملأ الدنيا بفرحته ، حملت غادة الأحلام الفتى على جناحيها وذهبت به إلى القمر الملون بالأحلام. عرجت به إلى بيتها فتخدرت حواسه وصار متخما بالسرور.. دائخا من ذلك الارتفاع المفاجيء الذى لم يصل إليه أحد من قبل، أشفقت عليه وعادت به هادئة، صارت تعلمه الطيران ببطء استعدادا للعيش فى بيتها بعيدا حيث الحب والأحلام يغلفان الحياة، طارت به إلى أمها التى قالت لها حين رأته:

- الآن قد فهمت تلك الأسرار التى أعلمتنى بها جدتك، وأنا بدورى

قد أعلمتك بها. إن الله يهيىء أرواح الناس بعضها لبعض سكنا، والمرأة هى التى تصنع ذلك الهدوء فكونى متروية.. فاهمة لطبيعة الروح التى أسكنها الله إليك.

ضحكت غادة الأحلام من قلبها وأمها تكرر عليها وصاياها، فقد كانت تسير على وتيرة الأم فى حياتها، وكان ضحكها على ذلك التطابق التام بين ما تفكر به وتنتهجه و ما تخبرها به الأم الرائعة.

الوصايا ..

. لازالت الأم تبث وصاياها فى أذن غادة الأحلام وترتب معها أمور المراسم التى اتفقتا عليها، وبينما هما تحاولان التغلب على الخجل، قالت الأم أن هناك أمورا مكملة للحب تتم بين الزوجين بمجرد أن ينغلق عليهما باب واحد، وأن السرية بينهما مهمة للحياة السعيدة، كان وجه الأم يتلون بالحمرة وهى تكشف لغادة الأحلام عن أمور لا تعرفها.

قالت غادة الأحلام للأم إنها كانت تصاب بالهلع لمجرد الفكرة وحدها من قبل، لكنها مع فتاها تستسيغ كل شىء، وإنها لم تعد مضطغادة من ذلك، وأيضا شىء ما بداخلها يحركها نحو الفتى فى هذا الاتجاه بشكل جارف.

قالت الأم إن ذلك يطمئنها، وإنها لاشك تتحرك فى الاتجاه الصحيح للحياة.

كان حديثهما مغلفا بنوع من الحرص على إبقاء العاطفة سامية ومحلقة بعيدا عن الأرض، وقد نجحت كلتاهما فى فهم ما تقصده

الأخرى بشكل راض.

وكان الجد من بعيد يرقبهما دون أن يسمع منهما شيئا، اقترب منهما، وعرف أنهما مازالتا تتحدثان عن الفتى قال إنه لم يكن يتوقع أن غادة الأحلام ستجد من يشعرها بالسعادة بهذا الشكل، وأنه هو الآخر قد أصبح مطمئنا عليها رغم ما سيسببه زواجها من فراغ لم يكن يحسب حسابه.

حلقت غادة الأحلام فى سماء الكون حين رأت أن الحديث عن فتاها مشوقا للجميع بشكل مدهش، ولم ينزلها إلا رنين الهاتف الذى يرن بتواصل، جرت إليه، فكان الخال على الطرف الآخر، ارتمت بين ذراعيه وهى تحاول أن تمسك بفرحها وقلقها عليه فى آن واحد.

أخبرها الخال أن الرحلة قد خرجت من الهوة السحيقة التى حفرتها العين الشريرة فى الطريق، وأنه يرتب بعض الأمور جانب سلمى، وقال إن الطريق قد أصبح مضاء ببدر مكتمل ونجم لايبارحه، وإن شجرا أخضر قد نبت على الجانبين وعلى جذوعه يرى قلبها وقلب الفتى يبتسمان على طول الرحلة.

سابع الرحلة..

قدر للرحلة أن تقطع ثلاثة آلاف ميل على ظهر حصان خلال ثلاث ساعات أو أقل، لكنها بعدما أصابها التأخير بدت وكأنها آتية على ظهر جمل يمر فى سهول ووديان وقفار وعرة، وبدا الجمل وكأنه قد عثر فى طريقه على بيضة ديناصور ضخمة، فرقد فوقها ولم يعد قادرا على الحركة حتى يرى نتيجة رقدته.

مر أسبوعان ودخلت الرحلة فى أسبوعها الثالث ومازالت فى منتصف الطريق.. شعر الجمل أن شيئا ما يتحرك تحته، فأزبد وأرغى وقام من بركته، وقف يشاهد فرخ الديناصور وهو يحطم غلاف البيضة ويخرج إلى الفضاء الواسع حوله، كان الفرخ - رغم ترنحه وهو يحاول أن يتماسك ويقف على أطرافه - يبدو كعفريت انطلق من قمقمه، والجمل مدهوش من منظره، وقف بلا حراك، اقترب الديناصور من الجمل الذى وقف حذرا، وراح يتمسح به ويلعق بطنه، رق له الجمل وبادله اللعق على جسمه، وأخرج الماء من تحت لسانه وغسله به.

وقف أفراد الرحلة بعيدا يرقبون المنظر، استعدوا للرحيل حين رأوا الجمل قد وقف وتأهب للحركة، تعجبوا للجمل وهو يتحرك حول نفسه، ويأتى بحركات مجنونة.. ينثر الماء من فمه على صخرة كان يستظل بجوارها من عناء الرحلة، اقتربوا منه، وضعوا أمتعتهم فوقه وتحركوا، والجمل من آن لآخر ينظر خلفه وكأنه يسير فى المقدمة أمام فرخ الديناصور، وأفراد الرحلة حين يرون منه ذلك يتعجبون وينظرون خلفهم فلا يجدون شيئا، أشفقوا عليه من لوثة السراب التى أصابته ، وأسرعوا قبل أن تلفح الشمس رمل الصحراء فتلهبهم وتقضى على جملهم، فالوادى جاف وعلى أرضه تنتثر كرات ضخمة من الصخر.

وكان الأولون يطلقون على ذلك الوادى اسم وادى البطيخ، فقد كان المنظر يبدو من بعيد وكأنه حقل للبطيخ لكثرة الكرات الصخرية فى أرضه.. فرح الجمل بتلك الكرات الصخرية الضخمة، وصار يقترب منها ويتشممها.. خاف أفراد الرحلة أن يرقد ثانية، فعصبوا عينيه بقماش أسود وهم يبعدونه عن الكرات التى تعترض الطريق.

دار كل ذلك فى مخيلة غادة الأحلام بعدما استطالت الوقت الذى مر على وصول الخال إليها.

خشى الطبيب أن يعاود سلمى النزيف بعد الجراحة التى أجريت

لها، لذا أمعن فى وضعها تحت العناية الدقيقة ، وأخبر الخال أنه فى الأسابيع القادمة سوف يبدأ معها رحلة العلاج الطبيعى،

رغم الموقف المؤلم الذى أصاب الخال، إلا أنه تذكر غادة الأحلام وتصورها عن غيابه، كاد أن يضحك حين جال بخاطره أن غادة الأحلام تتصور أنهم يقطعون ثلاثة آلاف ميل على الأقدام، أرسل لها هاتفا أخبرها أنه حين يجد موضع تلك العين الشريرة سوف يغلقها برصاص مصهور، ضحكت غادة الأحلام وقالت:

ـ عندما تأتى سوف أريك موضعها.

وأخبرته أنها كانت ترتب مع أمها أشياء تخص الفتى.

خرجت الأم مبكرا فى الصباح، فإذا بوابل من الأمطار ينهمر على المدينة، لكن ذلك لم يثن الأم عما عزمت أن تفعله، قاومت موج الريح العاتى، ودفعته بعيدا عن رغبتها فى أن تعوض الفتى عن تلك الآلام التى مر بها وهو مازال طفلا.

كان الفتى قد ولد على أطراف النيل فى واحدة من آلاف القرى المنسية، وكان الرجال فى تلك القرى يدفعون بأطفالهم بمجرد أن تتعلم أرجلهم المشى، يدفعون بهم كى يصيروا رجالا، دون أن يكونوا قد وعوا شيئا من أمور الدنيا.

استمعت الأم لغادة الأحلام وهى تروى لها ذلك مذهولة من تلك

الأمور، حتى بكت من شدة التأثر الذى سيطر عليها، بعدها قامت الأم، وفى نيتها أن تفتح خزائنها للفتى، كى تعطيه ما يشاء.. تأثر الفتى من تصرف الأم ورقتها المتناهية، حاول أن يثنى الأم عما تفعله، لكنها كانت حازمة فيما أرادت، هربت منه مقاومته تحت تأثير رحمة الأم وشفافيتها، دار كل ذلك بين الأم والفتى من خلال غادة الأحلام، دون أن ترى الأم الفتى، وذلك ما كان له بالغ الأثر فى نفسه تجاهها.

ود أن يراها ويخبرها أنها قد أهدته ملايين الكنوز حين وافقت أن تزوجه من غادة الأحلام، وذلك وحده أقصى طموحاته.

فهمت الأم أن الفتى وغادة الأحلام كلاهما مرتبط بالآخر إلى الحد الذى تصبح فيه الروحان روحا واحدة ويصبح الحب وحده سيد كل المواقف.

الفتى يعود أخف من عصفور..

ذهب الفتى إلى أهله محملا بالأحلام والهدايا وأثواب من الريش والحرير ونعال من جلود الحيوانات البرية، فتح حقائبه أمامهم، وراح ينثر الحب عليهم فتبدلت هيئتهم.

كان الجو حول الفتى والبنات ملتفات فى فرحهن أشبه بعالم ساحر.. البنات أصبحن شبيهات بالسنديرلات وهن فى كامل زينتهن، نطقن جميعهن بأن ما حدث لهن من فعل غادة الأحلام، وأن الأشياء جميعها تشبه ذوقها ورقتها.. ابتسم الفتى وأومأ لهن بالايجاب فصرن يدعون لها وللفتى من قلوبهن.

أخبر الفتى أباه وأمه بما فعلته غادة الأحلام مع البنات، وأخبرهما بما كان من أمره مع غادة الأحلام، وأنهما على وشك أن يعلنا موعد مراسم الزواج، وأخبرهما بما كان من أمر خال غادة الأحلام معه رغم أن الرحلة مازالت فى الطريق ولم تصل بعد.

ما إن انتهى الفتى من حديثه الذى سرده عليهما فى دفعات خوفا عليهما من الفرح الزائد حتى سرق الفرح النوم من عيون الأم والأب

وصارا يدفعان بالدعاء إلى السماء دون أن يتوقفا، حتى يصل الدعاء إلى الله مشمولا بثلاثتهم .. الخال وغادة الأحلام والفتى.

كانت توسلاتهما إلى الله يدفعها الحب من صدريهما، والبريق فى عيونهما مغلفا بدموع خفيفة متأثرة بالرحمة والعناية اللتين أحاطتهما بهما غادة الأحلام، والبنت الكبرى تأثرت بما جرى للأم والأب فراحت تهدئهما حتى غلبها البكاء، فقامت من جانبهما توارى خجلها وعيناها مسافرتان بعيدا تتطلعان إلى قلب غادة الأحلام ورقتها، شعرت أن الله قد زرع الرحمة فى قلب غادة الأحلام لأجلها.

مر الوقت على الفتى أثقل من جبل فوق الرأس وهو بعيد عن غادة الأحلام، انتظر حتى دخل الليل وسارع إلى النوم كى يطوى المدة التى قرر أن يبقاها بين أهله، سارع إلى نومه فهبطت إليه غادة الأحلام وعادت به إلى الكوخ، كان الشوق فى عيونهما يكاد أن ينطق وكأنهما قد بعدا عن بعضهما مدة طويلة، وما هو إلا يوم واحد فقط، وعيونهما تجذبهما إلى بعضهما بقوة.

لم يصبر الفتى فقام من فوره وأيقظ الشمس من نومها الثقيل وراح يهيء لها مقعدها، أخذها عنوة وأجلسها فى كرسى الصباح وهى متثائبة، وما إن وجدته الشمس لحوحا عليها حتى ضحكت وانتبهت، أرسلت نورها فأيقظ الدنيا.

جمع الفتى أشياءه وعاد إلى غادة الأحلام وأهله فى تعجب من لهفته وعدم صبره حتى يقتات مما جهزوه له.

راح يسابق الريح في عودته وهو يزمجر من عناد الهواء له وزحام الطريق، ود لو يغمض عينيه وقبل أن يفتحهما يجد نفسه أمام غادة الأحلام، في ثلاث ساعات مرت كثلاثة أعوام وصل الفتى إلى المدينة، ذهب إلى الكوخ فلم يجد غادة الأحلام، كان عليه أن يصبر حتى تعود لكنه لم يستطع أن يجلس، أطلق خياله في سماء المدينة يبحث عنها.

كان قد وعدها أنه سوف يأتى بعد أن تغيب الشمس، وهاهو قد عاد فى أول النهار، مرت الساعات وهى تلجمه بالانتظار، ورغبته فى أن يرى غادة الأحلام تفور بداخله كبركان، وحين رن الهاتف بعد أن غابت الشمس، وجد غادة الأحلام على الطرف الآخر، شعر أن قيودا من الفولاذ كانت تلجمه ثم تلاشت وكأنها لم تكن، حين سمع صوت غادة الأحلام على الطرف الآخر قفز من توتره وأصبحا وجها لوجه، حملته غادة الأحلام على جناحيها وطارت به.. أخف من عصفورين تموجا فى الهواء وذهبا إلى كوخهما.

أحمد يحلق بأجنحة حوريس..

إلى «أحمد».. ذى العامين الذى رحل دون أن أراه.

«العصفور

سقط من العش

وزغب الريش يغطى جسمه

فجرفته كاسحات الثلج

فأصبح العش باردا

وروحه فى السماء

تنعم بالدفء والحياة.»

عاد الوالى من عند الخال فاستقبله أهل بيته بالفرح، وهم ينظرون خلفه بحثا عن الرحلة، طمأنهم وأخبرهم أن الرحلة ستأتى بعد ثلاثة أيام.

دلف إلى حجرة غادة الأحلام، أخذها بين ذراعيه بعد أن أفاقت من نومها، سألته عن حال سلمى فراح يحدثها عن تحسن حالتها، دخلت الأم عليهما باسمة، ضحكت غادة الأحلام وقالت لها:

- سوف أخبر أبى بما فى عينيك.

خرجت الأم وتركتهما وحدهما..

تحدثت غادة الأحلام إلى أبيها بما كان من أمرها مع الفتى وبما كان من حال الفتى معها طوال عام كامل، تحدثت واسترسلت وبريق لامع يخطف القلوب يخرج من عينيها.

وكان الأب منصتا مأخوذا بما يجيش بصدر ابنته من حب، أخبرته غادة الأحلام أنها فى حاجة إلى موافقته كى تتم مراسم الزواج، نظر الأب إلى الفرح فى عينيها ومنطق الحب الذى تتحدث به، وقال إنه يثق كل الثقة فى رجاجة عقلها وتفكيرها.

أعطاها الموافقة على اختيارها دون أن يرى الفتى أو يتحدث معه، كانت غادة الأحلام واثقة من رأى أبيها، لكنها كانت أيضا فى حاجة إلى أن تسمعه منه وهو يباركها ويمسح على شعرها بعطف وحب بالغين، شكرت أباها والفرح يرفعها عاليا.. دقت باب قلبها، ابتسمت له.. شكرته ورجعت مسرعة.

حملت ابنة خالها الصغيرة التى تحمل اسمها، وقد أتت مع الوالى قبل الخال تاركة أخاها الصغير أحمد مع أمه وأبيه، وطارت بها فى الجو تطلعها على تلك الأطلال الباقية من زمن أجدادها، وتلك الحضارة التى ملأت المشرق والمغرب بالمعرفة.

شاهدت الطفلة حوريس وهو يخرج من النهر وينحنى أمام غادة الأحلام، بدا كطفل واقف فى طاعة أمه، والطفلة مندهشة من شكله

المطابق لشكل أخيها أحمد، وبينما هى واجمة تسأل غادة الأحلام عن ذلك تركهما تتحدثان ..رفرف بجناحيه، واختفى.

سألت الطفلة :

- أين أخى أحمد؟

قالت غادة الأحلام :

- أحمد مثل كل الأطفال الذين يموتون صغارا، يعيش فى جنة الله الواسعة .

قلب الرحمة..

الشـهب المتسـاقطة من الفضـاء توقفت بعيدا عن رأس غـادة الأحلام بمقدار قدم واحد ولم تعد تدرى أين تفر.

فقد كانت غادة الأحلام تقبض عليها، وتنثرها فى الظلام كاشفة النجوم لتنير الدنيا ، وتنقذ الناس برقتها.

••

كانت الدعة والطمأنينة على وشك الانجراف مع تيار الواقع الهادر.

حيث لا وقت للأحلام

لا وقت للتأمل..

لا وقت للانسجام..

لا وقت للتحليق بعيدا فيما وراء المعانى..

لا وقت لأى شىء..

فإذا بغادة الأحلام تهبط من بيتها بمظلتها الواسعة فأصبح هناك وقت لكل شىء.

••

بدت المراكب فى طرف البحيرة مهيأة لاستقبال الملكة، وبدت الطيور رائحة وغادية فوق الماء تلتفت هنا وهناك فى فرح عارم.

وبدا الناس مكشوفى القلوب وهم ينظرون إلى غادة الأحلام وهى تتهادى برقة على خفقاتهم.

••

قطرات من الندى مازالت عالقة بشعر الفتى، وهاهو خارج من ضباب الطرقات الريفية، وها أنت تستقبلينه بكل تلك العناية، وتجعلينه ملكا.

فما أروعك....!

المحتويات

صدر مؤخرا من هذه السلسلة

الأعمال القادمة

يحدث.................................... عبد الحفيظ طايل

أصداء التراتيل الصامتة........................ محمود قنديل

ص .... علي الدكروري

صورة الحزن الدائم.............................. محمد صالح البحر

حروف ونقط دم .... فتحي البريشي

صلوات الأرض.. ماهر مهران

دفء الأمكنة .... محمد رفاعي

لعب عيال .... عبد الحكيم محمود

أحلام منسية .... طارق هاشم

ولا عفريت تؤرقه البلاد .... محسن عبد العزيز

وسط دايرة الانتحار .... محمد البرعي عبد الصمد

ورد الشتاء .... أشرف الخريبي

التوهم .... وائل فوزي

تفاصيل .... محمود حسن حماد

الفوارس .... محمد نجار الفارسي

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: ٣٩٠٤٠٩٦٠



غادة الأساطير الحالمة

محمد العشرى



كانت الدعة والطمأنينة على وشك
الانجراف مع تيار الواقع الهادر.
حيث لاوقت للأحلام
لاوقت للتأمل..
لاوقت للإنسجام..
لاوقت للتحليق بعيدا
فيما وراء المعانى..
لاوقت لأى شىء..
فإذا بغادة الأحلام تهبط من
بيتها بمظلتها الواسعة فأصبح
هناك وقت لكل شىء.



خمسون قرشا

شركة الأمل للطباعة والنشر